الباراسمبثاوي

الباراسمبثاوي

رشا إسماعسل

رواية

تصميم الغلاف : محمد عيد

تدقيق لغوي : محمد السملوسي

رقم الإيداع : 2014/20280

I.S.B.N: 978-977-488-319-4

دار اكتب للنشر والتوزيع



الإدارة : 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة .

المدير العام : يحيى هاشم

هاتف : 01144552557 - 01147633268

E – mail :daroktob1@yahoo.com

Facebook : دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ، 2015م

الباراسمبثاوي

رشا إسماعيل

رواية



دار اكتب للنشر والتوزيع

1

كان حفل زفاف رائعًا، وهذا مجمل ما اتّفق عليه الجميع. فليس هناك أفضل بالنسبة لهم من مطالعة عروس جميلة سعيدة فى أضواء مبهجة، مع الموسيقى المليئة بمشاعر غامرة تذكرهم بخيبة آمالهم الواسعة فى الحياة. ولكن أملاً ما قد يُولد من نظرات عروسين متحابين ويستمر فى قلوب الحاضرين حتى نهاية ساعات الحفل المعدودة. وبينما كان العروسان يتبادلان كؤوسَ عصير الورد، انخرط الآباء مع بعض أصدقائهم فى الحديث الذى بدأه والد العروس بتصريحه عن رأيه فى أحداث الحدود الشرقية.

فنسى الجميع فرحتهم بالزوجين الحديثين فى غمرة نقاشهم.

– إن الرئيس غافل عن أنه يستفز جميع القوى المحيطة به فى الداخل وفى الخارج ويعتقد أنه وحده فى هذا العالم.

– إنه يعرف تماماً من يحالف ومن تهون تبعات معاداته. إن قائداً لا يتصرف بمثل هذه الثقة إلا إذا كان مطمئناً لظهره.

– أو ربما تطمئنه حماقته. ألا يرى الغضب الهادر فى الشوارع!.

إنه يبدأ بعدوان غير مبرر ولا أحد يعرف ماذا ستكون عواقبه.

– هل ستكون عواقبه أشد من الفقر الذى حلّ بالبلاد ويبدو أنه لن يتركها إلا وقد صار من بقى من أصحاب رؤوس الأموال الصغيرة مأجورين. أما أن تقول أنه غير مبرر فيجب أن تتذكر أن تلك المدينة الصغيرة الواقعة على حدودنا الشرقية كانت قبل مئة عام تابعة لنا لولا تغير مواقف القوى والمفاوضات وإعادة ترسيم الحدود، فسُرق من نصيبنا فى أراض غنية الباطن مقدار ليس بالهين. وهل هناك فرصة أفضل من وقوع جارتنا فى فوضى الحرب الأهلية التى لا يقدر أحد كم ستمتد لنستعيد منها إرثنا.

– إننى لا أحب الحديث عن التاريخ والحقوق وكل تلك الأوهام، يجب أن نعرف بكل وضوح بم سيعود علينا هذا الأمر الخطير الذى إذا كنا غير واثقين من أننا سننتفع به فإننا بكل تأكيد سندفع ثمنه. إذا كان سيمضى فى اتجاه وضع حل لاستمرار زيادة الفقير فقراً وزيادة الغنى غنى فحتماً سيكون شيئاً جيداً.

ولكنى أعرف أنه ليس كذلك وأن اجتثاث هذا المرض الخبيث من جسد العالم ليس بهذه البساطة.

– ومن يدرى من يظنه هذا الرئيس حليفاً له غداً ماذا يكون!. على كل حال لقد قضى الأمر دون رد فعل يذكر سوى بعض التنديدات. ولكن من يعرف فيم ستورطنا غداً الجيوش الملحقة؟

صمت بعض المتحدثين وعاد يستمع للموسيقى، وماهى إلا دقائق حتى عاد الجميع للاندماج فى الحفل ومتابعة العروسين والفتيات الجميلات المحيطات بهما.

وبعد انقضاء الفقرات المعدة من: غناء، ورقص، وفقرات الفنانين المغمورين، من القاء النكات، وتقليد المشاهير، وفقرات الرقصات الفلكلورية، وبعد تناول الطعام والحلوى والمرطبات، انفض الجمع السعيد ليبدأ العروسان حياتهما الجديدة وليعود الحاضرون إلى حياتهم المعتادة وليعود الشباب إلى أحلامهم الوردية.

***

2

منذ عامين تقريباً تناقلت الألسنة شائعات عن خلاف وقع بين الرئاسة تحديداً فى شخص الرئيس نفسه وبين وزيره المسئول عن شئون الجيش والدفاع الوطنى. وبالتأكيد لم يعلم أحد شيئاً عن سبب الخلاف، ولكن كانت بادية للجماهير مظاهره فى تصريحات أو مواقف لم تنفع فيها مهارة رجال السياسة لإخفاء الضغط النفسى الذى نتج عن أسباب الخلاف. أثار ذلك موجة من التوتر المبهم لأزمة غير مبررة وغير معلنة. فقد كان الوضع الداخلى لا يحتمل مزيداً من القلق على الغد.

ظلت التفسيرات والاحتمالات تنهال من أقلام الكتاب وهمساً بين المواطنين دون أن يخرج خبر واحد مطمئن من الأطراف المعنية، كانت خيوط الحقيقة جميعها تدور فى محيط ضيق للغاية لا يمكن اختراقه، أو استخلاص كلمة واحدة يمكن أن توصف بالصدق من أحد أركانه.

على كل حال لم تمض شهور قليلة حتى انفرجت الأزمة ودلّت الشواهد المُتعمَّدة على رجوع المياه إلى مجاريها بين رأسى المؤسستين. ولكن ظل الجهل التام بما حدث وبما أصلح ماحدث قائماً.

لم يكن تسرب ولو كلمة واحدة ممكناً عن أمر دار بين أطراف كانت تصريحاتهم لا تمر دون أن توزن بميزان الذهب. لكن الأحداث

فيما بعد وتسرب بعض التفاصيل إلى دوائر محيطة بتلك الأطراف أكّدت بأن الأمر متعلق بعملية عسكرية بدأ التفاوض بشأنها بين القيادة السياسية والعسكرية. وأصبح رفض الوزير والقائد العام للجيش مثاراً للإعجاب عندما تبينت الأمور.

وتجلى موقف الجيش فى رد الوزير الحاسم.

كانت القيادة العسكرية تنتظر بعد هذا الموقف الصارم أمراًبتنحيتها. وهذا بالفعل ما أوشك حدوثه، ولكن مستشار الرئيس كان له رأى آخر طرحه على الرئيس فتغير بذلك مجرى الأحداث. فقد اتضحت لديه معالم القوة العسكرية بصورة لم يتوقعها، ولم يكن ذلك الرئيس الحديث العهد بمنصبه يعلم تماماً طبيعة توجهاتها ومدى توافق رغباته ومشروعاته معها . وبذلك يصبح الطريق الذى عزم الرئيس على المضى فيه من استبدال قيادات الجيش غير مأمون العواقب. فضلاً عن أنه لا توجد أسماء مرشحة لمناصب القيادة يثق فى اختلافها العقائدى عن القيادات الحالية..

كانت رؤية المستشار تتلخص فى إمكانية تشكيل قوات مسلحة تكون تابعة مباشرة للرئاسة حيث تتلقى أوامرها.

هذه القوات ستتكون من المتطوعين الذين سيتم تدريبهم على يد قوات الجيش النظامى، وعلى ذلك فليس من المعقول إثارة الاضطرابات والقلاقل داخل صفوفها.

وأشار أنه من الواجب ملاحظة أن جيش الدولة أصبح مترهلاً لطول ركوده حتى أصبح رمز قوة الدولة لا يتمنى سوى الاستقرار والدعة.

ولم تشأ القيادات أن تذهب فى اعتراضاهما إلى أبعد مما حدث.

وبذلك حدثت التسوية!

3

أصبح العروسان أباً وأماً لطفلين. أكبرهما: "ناهد" والثانى: هو فتى سُمِى "نجيب"، الفارق الزمنى بينهما عام. وعام وراء عام تزداد الحياة وأعباؤها صعوبة، ويضطر الأب للبحث عن عمل إضافى ليصبح مجموع ساعات عمره التى يقضيها بالعمل أربعة عشر ساعة يومياً. تعادل عدد ساعات عمل الأم بالبيت تقريباً.

كانت الابنة الكبرى تقضى نهارها كله خارج المترل بين المدرسة ومايليها من الدروس الإضافية التى تتلقاها من المعلمين خارج المدرسة فكان عالمها الأصلى محصور بين صديقاتها والمعلمين

بينما يتخذ الأم والأب والأخ دوراً ثانوياً. ربما لم يكن هذا هو السبب الرئيسى فى جفاف مشاعر الفتاة تجاه البيت، وربما كان جفاؤها الواضح فى تعاملها مع الأم ليس ذنبها وحدها. أما نجيب فكان لا يعرف سوى البيت والمدرسة والتى لم يكن يتمنى أن يعرفها. كان هناك اختلاف واضح للغاية فى طبيعة الأخوين، فالفتاة جريئة وشجاعة لدرجة لم تفهمها الأم إلا بوصفها وقاحة تستحق المزيد من العقاب الذى لم يكن يؤدى إلا إلى مزيد من العناد، فلم تكن الفتاة تخشى الضرب أو السباب بقدر ما تغتاظ من ضياع ماتسعى إليه. أما "نجيب".. فعلى الرغم من الهدوء الذى يحيا فيه وحرصه على ألا يثير أى غضب، إلا أن ذلك لم يمنع من تعرضه لعقوبات صارمة لأتفه الأسباب. فهو يذكر كم كانت الصفعة التى هوت يد أمه على وجهه

بها مؤلمة ومهينة؛ ولم يكن ذلك إلا لأن الكأس الأخيرة المتبقية من طاقم الكريستال سقطت من يده وهو يتأملها فتحولت إلى ثلاث أو أربع قطع انحنى ليلملمها ويحاول ترميمها إلا أنه لاحظ أن الأمر مستحيل، وبمجرد أن فكّر ويده ترتعد فى إخفائها ، وجد أمه أمامه تصرخ وتلطمه على وجهه دون أن تسمع لاعتذاراته المتوسلة. أخذ يبكى وحده وراء باب حجرته حتى أنه لم ينتبه للدماء التى تسيل من جرح بيده.

ولكنه عندما رآها انهمر المزيد من الدموع والصراخ المكتوم.

كان فى السابعة من عمره، يجد أنه حتى لو حاول إرضاء الجميع بالصمت والطاعة فإنه لن يسلم أيضاً من العقاب. كان ينظر إلى أخته وهى تتلقى عقابها من أحد الأبوين من وراء الفتحة الضيقة لباب حجرته وهو يرتعد هلعاً من أنهم بمجرد أن ينتهوا منها سيأتى دوره. ويراقب ردود أفعال الأخت الشرسة وهى تردد سباباً تعلمته من الشارع بينما تحاول بكل قوتها صد اليد التى تنهال عليها بالضرب.

كان يكره جنونها وحماقتها فى استثارة مُوقِع العقوبة للمدى الذى يجعله يواصل الضرب ساعات مما يخلق حالة من الرعب المميت بقلب طفل لم يرد سوى أن يحيا فى أمان. ولكن فى أعماقه وراء الهلع كان هناك رضا ما عن صلابتها أو ربما إعجاب خفى بمقاومتها التى تطيل ساعات رعبه بدلاً من أن تتلقى ضرباتها المقررة فى خضوع لينتهى الأمر بسرعة.

وفى المقابل كان شحوبه الشديد وعيناه الزائغتان وحدقتاه المتسعتان وارتجاف أوصاله يثير داخلها اشمئزاز واحتقار لا حد له يجعل كراهيته لنفسه تصل على مر السنين إلى حد لا يطاق.

وهذا تقريباً ملخص وضعه وسط زملائه بالمدرسة. ويمكن تخيل ما يثيره طفل رعديد وسط صبية متعطشين للمغامرة ومتوحشين -كما يراهم- من سخرية. لقد كان أضحوكتهم ولعبتهم المفضلة، وكم تلقى ركلات مهينة لم يفهم لها سبباً، إنه لم يسىء إلى أحد ولم يحاول إزعاج مخلوق، فلم يعود كل يوم من مدرسته الكريهة، وهو يبكى فى قلب فراشه ولا يجرؤ على أن يشكو لأحد؟ كيف يشكو بلسانه ما لن يتغير سوى بيده؟ وهو لا يستطيع أن يكون مثلهم فإن حاول أن يرد ركلة فلن يقوى على أن يكون البادىء بالعدوان دوماً كى يسترد كرامته وكى يمنع عن نفسه ايذاءهم له الذى بدا وكأنه صار لعبتهم المفضلة فى وقت من الأوقات؟

لو كان هناك من يسمعه؛ لاستطاع أن يرحل عن هؤلاء الأوغاد ليلتحق بمدرسة أخرى أو ربما ترك المدارس للأبد. ولكن لا أحد يسمع ولا هو سيستطيع مغالبة خجله من وضعه المشين ليحكى عنه. كان هناك حادث بمثابة نهاية لتلك الحالة لتحل محلها حالة أخرى من التجاهل والتهميش. إنها المعركة الكبرى الأولى التى دارت رحاها عندما بلغ الصف الثالث الابتدائى بين تلاميذ فصله الدراسى وتلاميذ الفصل المجاور وقد فوجىء زملاؤه بهجوم زملائهم متسلحين بالمقاعد والكتب والأحذية والأحزمة الجلدية فلم يكن منهم إلا أن ردوا على

العدوان بنفس الأسلحة ، ورغم المفاجأة إلا أنهم أبدوا شجاعة كبيرة وحماسة تقترب من السعادة المفرطة.

لم يعرف أحدهم أنه ترك المكان على الفور ،وهرع يحتمى بدورة المياه، بل إن أحداً لم يبال أن يبحث موقفه فى المعركة بعد ذلك. قُدِّرت الخسائر فيما بعد بتحطم ثلث عدد المقاعد تقريباً وتمزيق عشرات الكتب وإصابة سبعة تلاميذ بجروح قطعية بالرأس. ولم يكن السبب المباشر لتخلص عنق "نجيب" من أيدى أعدائه هو العقوبات التى نالتهم من إدارة المدرسة من ضرب واستدعاء للآباء والتعويضات المالية التى فرضتها عليهم وحتى العقوبات التى استكملها الآباء داخل بيوتهم، ولكن بالعكس من ذلك فقد أذكت هذه المعركة حماستهم للاستمرار فى تلك اللعبة الرائعة التى انكشفت لأبصارهم على حين غرة، فملكت كيانهم واستحوذت على عقولهم فصاروا رجالاً ممن لا تستهويهم سوى عظائم الأمور. فأصبح التحرش بطفل جبان عمل خائب لا قيمة له فى نظر رجال أشداء. وصار الثأر هو شغلهم الشاغل والاستعداد للمعركة القادمة هو مجال حديثهم اليومى وفصلهم الدراسى هو غرفة العمليات التى يشترك فيها الزعماء مع جنودهم فى وضع الخطط والاستراتيجيات. وتكررت الهجمات والهجمات المضادة فى كل مكان عدا الفصول الدراسية مابين فناء المدرسة أو خارج أسوارها. ومن الغريب أن "نجيب" الذى لم يشارك فى المعركة الأولى تلقى نفس العقاب الذى تلقاه باقى زملائه .

فى أثناء ذلك كان هناك حادث آخر خلال أشهر قليلة، إنه ميلاد أخته الصغرى "نورا". وكأن قمراً أضاء ظلمة البيت، وسط الضجر والخوف والقسوة يشرق. كان نورها أول ما يمس عينيه بعد تيقظه،

وآخر ما يغمضهما عليه. مخلوق نُسج من الجمال والحنان والرقة والسلام والحب.

لقد أقسم لنفسه أنها ربتت عليه بعد شهرين من مولدها. كان يتمنى أن يحملها بيديه ويجعلها تنظر معه من الشرفة للنور والسماء ولكنه كان يخاف أن تسقط من يديه المرتجفتين .

وكم تمنى أن تأكل الحلوى التى يأتيها بها ولكن أمه أخبرته أن أمامها شهوراً لتستطيع ذلك. كان يريد أن يجعل هذا الملاك باسماً ضاحكاً دوماً، تلك الضحكة التى تبعث فى نفسه شعوراً بالسلام من مخلوق فائق الجمال أتى لتوه من السماء ليذكره دائماً بالإله الذى يفيض على الأطفال الخائفين المنبوذين بالعطف والطمأنينة.

4

لم يعرف "نجيب" فى سـ اته التسع تلك سوى البيت والمدرسة فقط، ولم يذهب إلى أى مكان آخر سوى مع أسرته وكانت تلك حوادث نادرة. أصبح تصوره للعالم خارج حدوده أقرب للخيال، مابين أشباح وخيول جامحة وأشخاص شريرين متربصين لإيقاع الأذى بأول عابر طريق. وهو يعلم أنه ضعيف لن يستطيع حماية نفسه ولن يقدر على المقاومة ولا حتى الهروب الآمن فى الوقت المناسب، فهؤلاء المتربصون لا يرحمون. فى أول عام له فى الدراسة كانت أول مواجهة معهم حينما تخلوا عن شوارع المدينة المرعبة واتجهوا إلى مدرسته، وذلك عندما أشاع أحد الظرفاء بين التلاميذ أن هناك لصاً سيقتحم المدرسة فى الساعة الواحدة ظهراً.

ساد الهرج والمرج بين التلاميذ الخائفين وهرعوا يخفون مصروفاتهم، أما الفتيات فطلبن من معلماتهن خلع أقراطهن والاحتفاظ بها حتى يرحل اللص.

كان "نجيب" قد انحلت أوصاله وهو لا يدرى ماذا يفعل وهو لم يكتف بإخفاء المصروف بل اتجه إلى منزله الذى كان قريباً من المدرسة؛ ليخبر الأم بالكارثة التى حلت به وبمدرسته.

استطاعت الأم أن تفهم مايقول بصعوبة وسط دموعه الفزعة وشهيقه وكلماته المهتزة، ضحكت الأم لمدى لطف ورقة ذلك اللص

الذى يصر على تمسكه بأصول اللياقة وألا يتطفل دون موعد مسبق حتى فى أعماله الإجرامية. وعبثاً حاولت إقناعه بالعودة إلى المدرسة وأن الأمر لا يعدو كونه مزحة. وكيف يستجيب وقد رأى بنفسه هلع التلاميذ وسمع الخبر بأذنيه من أحدهم، ولكنها تركته ليمكث بالبيت ولم تقل له أبداً كلمة "لا تخف" رغم ارتجافه الشديد. كان أخطر ما فى الأمر بالنسبة له هو أنهم عرفوا طريق المدرسة ولن يتركوه وشأنه. فظل يترك لهم الشوارع ويحتمى بأسوار مدرسته وجدران بيته. ولكنهم لم يتركوه فى أحلامه فقد حلم ليلة بأنه دُفع دفعاً لينزل إلى الشارع، وكم كانت مغامرة رهيبة، فلم يكد يتخطى خطاً يبدو كحاجز رآه فى الحلم -لم يكن سوى رمز لفاصل بين حدود عالمه وعالم الآخرين- حتى فوجىء بهجوم عنيف من راكبى الخيول الضخمة وسائقى السيارات المتهورين وكانوا جميعاً من الأشرار المتحفزين لإيذائه والقضاء عليه.

ما قالته له أخته الكبرى بعد أسابيع عانى فيها الفزع من تكرار ذلك السطو المُعلَن الذى قد يصدق فيه اللص ذات مرة ويأتى فى موعده:

- أيها الأحمق..هل هناك لص يخبر الجميع بأنه سيسرق!

وما كان يدريه، إنهم لصوص وأقوياء ويستطيعون فعل أى شىء.

قارب "نجيب" العاشرة من عمره، وبينما هو ذاهب يوماً ما إلى المدرسة وجد الرصيف الجانبى الذى يسير عليه ممتد للأمام إلى حيث لا يدرك بصره، لم ينتبه من قبل إلى امتداده وكأنه كان ينتهى حيث

ينحرف هو إلى الشارع المؤدى إلى مدرسته. خفق قلبه وهو يستطلع بعينيه المجهول الذى يخفيه وراءه هذا الطريق ذو الصباح الهادىء. لا يعرف كيف حدث هذا، إن ساقيه قد انطلقتا فجأة فى العدو على هذا الطريق. لم يشعر بثقل حقيبته على ظهره، لم يشعر بشىء على الإطلاق. دقات قلبه الثقيلة أصبحت أكثر خفة، وهواء الصباح البارد يخدر وجهه وعينيه التى لم تقع سوى على الطريق الذى يجرى أمامه وهو يلاحقه. أخذ يجرى ويجرى ويجرى..

لا يقدر على التوقف، ولا يفكر فيه لحظة. لا يشعر بالتعب ولا يشعر بالراحة ولا يشعر بالخوف. فقط يلاحق الطريق، والطريق يسابقه، ولا يبلغ أحدهما شيئاً.

لم يعرف كم مر من الوقت وقدر المسافة التى قطعها عندما توقف فجأة ونظر حوله ليجد نفسه فى عالم آخر، مكانٍ لم يره من قبل ولا حتى وهو بصحبة أسرته. نعم إنه رأى القليل جداً من الأماكن ولكنه كان معهم ولم يكن وحده وهذا لم يجعله يفكر أو يخاف، أما الآن فهو وحده لا يعرف شيئاً ولا يملك شيئاً. كان دبيب الرعب فى قلبه مؤلماً، ثقيلاً ومفزِزاً كوقع زحف أفعى ضخمة تتجه بقلبه مع زحفها إلى أسفل إلى القاع، جسمها بارد يقرص ويوخز ويؤلم كالثلج. تدفق فى أطرافه إعصار الماء والنار وألصقه بمكانه وكأن قدميه قد انصهرتا مع الأرض تحتهما وصارتا قطعة واحدة. تمنى لو يهوى للأبد ليرتاح مما ينتظره. كانت كل تفصيلة غريبة عليه من حوله تصعق قلبه بتيار كهربى عنيف مكثف عالى الجهد، وتحرق أحشاءه بمعدن سَخُن حتى الاحمرار. لم يعد من المهم الالتفات إلى سبب الكارثة التى ورطه فيها تهوره اللعين، المهم هو الكارثة الأكبر فى كيف يعود. كان يتمنى أن

يهرع إلى أحدهم ويبكى ويتوسل إليه أن يعيده إلى بيته أو مدرسته إلا أنه كان لا يطمئن حتى لهذه الرغبة فهى تزيد من حدة مخاوفه. أخذ يتابع السيارات، وجدها تسير بسرعة جنونية محطمة آخر آماله فى المجازفة. لقد كان يبحث عن سيارات الأجرة تلك التى يستقلونها فى زياراتهم النادرة للأقارب، ولكن كل شيء يجرى أمامه كالصاروخ ويتبخر. تذكر أنه ليس معه حتى مالا يكفي. فكّر فى تلك الحافلات الكبرى التى عرف ذات مرة أن أجرها زهيد ومزدحمة ومقرفة، ولكنها حتى لا تتوقف. أخذ يتابعها واحدة واحدة وهى تمر بعينين دامعتين، ولكنه وسط ضباب دموعه لاحظ أنها تقف فى مكان بعيد، أخذ يعدو بساقين مرتعشتين متهالكتين باتجاهها.

وأخيراً وجدها تقف..تمر وتقف أمامه، ويبرز منها فتى يُنادى بصوت جهورى لا يناسب حجمه الضئيل بأسماء لا يعرف منها "نجيب" سوى القليل وهى أسماء أماكن ليس من بينها اسم شارعهم أو شارع مدرسته. فهم بصعوبة أن الحافلة تمر بأماكن محددة وليست مثل سيارات الأجرة. توقفت حافلات كثيرة أمامه ونادى فتية كثيرون بأسماء أماكن كثيرة لم يجد بينها وجهته.

دفعته الرغبة فى النجاة إلى أن يتجرأ ويسأل أحد هؤلاء الفتية هل ستذهبون إلى شارع كذا أو كذا، لم يرد الفتى وواصل النداء والإشراف على صعود وجلوس الأشخاص المتزاحمين حول الباب حتى صعد هو وانطلقت الحافلة. انهار نجيب تماماً وشعر أنه ضاع للأبد. سأل فتى آخر ولكن الحافلة تحركت بسرعة فجرى الفتى ليلحق بها وقال له وصوته يتباعد:

– الناحية الأخرى. لم يفهم "نجيب" مايقصده، عاد ليسأل ثالث ورابع ولم يفهم إجاباهم وكلماهم غير الواضحة ونفاد صبرهم وإعراض أغلبهم عن الرد عليه. نظر إليه أحدهم بضيق وأشار إلى الناحية الأخرى، عندما نظر إلى الجهة المقابلة لاحظ أنه لم ينتبه إلى الرصيف الآخر، أى أنه سيجد الحافلة التى تتجه إلى شارعهم. ولكن نظرة واحدة تأمل فيها كيف سيمر من بين السيارات المسرعة جعلته يفقد الأمل، فهذا مستحيل. إن أمامه الموت ليمر إلى الرصيف الآخر. أخذ يبكى وانهمرت دموعه أخيراً أمام السيارات التى لا تقف ولا تهدأ سرعتها قليلاً. صرخ فى نفسه "لا شىء هنا يحمى الذين لا يركبون سيارات ويمشون على أرجلهم ويريدون عبور الشارع". ولكنه وجد رجلاً استطاع أن يمر، وامرأة وطفلة فى مثل سنه، وطفل أكبر منه قليلاً. أخذ يتابعهم ليحاول أن يفعل مثلما يفعلون، ولكنه لم يتقدم سوى خطوة واحدة تراجع عنها بسرعة وعاد إلى يأسه وبكائه. لقد كانوا يمرون ويجبرون السيارات على أن تقلل من سرعتها برباطة جأشهم التى تعجب لها والتى لم يفهم سوى أنها جنون أو أنه أضعف وأغبى من أن يفعل ما يفعلونه. كيف لا يخاف ويرتعد والسيارات لا تكترث وليس هناك من يساعده؟

وجد امرأة وابنتها تقفان إلى جواره، ربما تُقدِم المرأة على عبور الطريق، وربما استطاع أن يبقى إلى جوارها ويعبر معها كابنتها.

وبالفعل عبرت المرأة الطريق وهو إلى جوارها هى وابنتها ليخطو بمحاذاتهما وكأنهما درع بشرى له. حتى وجد نفسه على الرصيف المقابل. أعاد الكرة فى سؤال فتية الحافلات، أحدهم كان رجلاً كبيراً كوالده وربما أكبر سأله "نجيب":

– أين ستذهب؟

فسأله الرجل – إلى أين تريد أن تذهب أنت؟

أخبره فأشار له الرجل ذو المظهر المتواضع والوجه البشوش المُطَمئن ليصعد وأعلمه أنه عند أقرب مكان من شارعه سينبهه للنزول. صعد سلم الحافلة بسرعة وجلس على أقرب مقعد خالٍ بجوار النافذة.

أعادت له سرعة الحافلة وغرابة الأماكن التى مرت بها موجات الصقيع واللهب والشحوب والرعدة التى بعثها عدم ثقته بصحة الطريق أو بصحة كلام الرجل أو بصحة أى شيء. كما أنه من يدريه أن الرجل سيتذكر وعده بأن ينبهه حال وصوله، أو أنه سيتركه بمكان لا يعرفه ولا يعرف كيف يعود منه إلى البيت، وربما كان مكاناً مهجوراً لا سيارات به ولا حافلات، وربما كان المكان مليئاً بالمجرمين والقتلة واللصوص، وربما..ربما أى شيء وربما كل شيء سيء سيحدث له بعدما قاده قدره الأسود إلى هلاكه. شعر بشيء حارق فى مجرى البول، كان لابد أن يُذَكِّر الرجل لينبهه وقت الوصول ولكن الرجل كان بعيداً،وبينما هو غارق فى رعبه وعجزه وملاحقة الكمسرى بعينيه، إذا به يسمع صبية يقهقهون خلفه.

التفت إليهم فوجدهم فى مثل سنه تقريبا، ثلاثة وحدهم دون آباء كبار .لا يكترثون بالطريق وكأنهم يعلمون تماماً متى سينزلون وأين.

والرجل ذو الشعر الرمادى الذى يجلس إلى جواره كان كذلك حتى أنه كان شارداً. والرجل الأصلع، والمرأة ذات الملابس الواسعة،

والفتاة ذات الأعين الجميلة، الجميع كانت وجوههم هادئة، كئيبة حقاًولكنها على الأقل مطمئنة لهذا الطريق المرعب الطويل. توقفت الحافلة فخفق قلبه ونظر للرجل متسائلاً ولكن الرجل أجابه بإشارة من يده تقول أنه ليس بعد.

توقفت مرات أخرى ونزل الكثير من الركاب فزاد فزعه. وأخيراً أشار له الرجل لينزل حينما توقفت الحافلة تلك المرة. فنزل ببطء وهو يستطلع المكان قبل أن يطأه.

ولكن الرجل تعجله فهبط وانطلقت الحافلة مسرعة بعدها. مكان لا يعرفه تمر فيه سيارات قليلة هذا ما كان يرتعد منه خوفاً ، أخذ يخطو خطوات صغيرة للغاية وهو يتوقع بروز السفاحين من جوانب الطريق أو هبوطهم بمظلات. والبيوت صامتة ومغلقة لن تسمع صراخه. أخذ يقرأ اللافتات ويتابع المحال وأسماءها لعله يجد شيئاً يعرفه. لم يجد بداً من اللجوء لأحد أصحابها حين استشعر بأنه رأى محله من قبل.

عندما رأى البيت أمامه انهار باكياً.

5

كان "نجيب" يحب رائحة شراب الأعشاب المغلية التى تصنعها أمه لـــ"نورا" الصغيرة على الرغم من أنه لا يحب طعمها، ولكنها كانت نكهة خاصة للأيام، إنه كائن صغير يكبر أمامه وعلى يديه وتدب قوى الحركة فيه، يصنع الروح ويصنع العالم الذى يمتص المحبة والرعاية ليمنح السعادة والبهجة التى لا سبب لها سواه.

كان يجدها تشعر بكل شيء وتكاد تكون متفهمة لكثير من الأمور بينما لا تستطيع النطق بكلمة مفهومة. ودائماً كان الراعى الذى يلاحق شرود حيواناته، أو المدرب الذى يحاول التحكم فى سلوكها وضبط إيقاع حركاها. كان أول من ساعدها على أن تخطو وتستوى بين يديه واقفة، وكانت أول من أنار عينيه بشجاعتها أو هكذا رأى هور طفولتها، كان هذا نابعاً من سذاجة أو جهل لا يهمه، المهم أها لا تخاف من عجزها ولكنها تواجه رغباها وتطلعاها. تساءل فى نفسه: "هل كان كذلك وهو فى مثل عمرها؟" لقد كانت تُقدم على أفعال جد خطيرة قد تؤدى إلى سقوطها من ارتفاعات عالية أو شج رأسها أو فقء عينيها، كل ذلك وهى مبتهجة ضاحكة..كم يصير الجهل نعمة!

انصرف جزء كبير من وقت "نجيب" فى عادة القراءة التى اكتسبها مؤخراً بعدما اطلع بالصدفة على إحدى روايات المغامرات المتداولة

بين جمهورها من المراهقين، وما كان أشد تأثره بها والذى لم يتوقعه هو نفسه. عالم من الأحداث والبطولات والخوارق حيث يذوب الخوف وتعلو متعة الصراع والتحدى والشعور بالذات لأبعد مدى. حتى أن إقباله الضعيف على كتب الدراسة ازداد ضعفاً، وبخاصة كتب الجغرافيا والتاريخ والتى كانت تبدو سطورهما من أول نظرة طلاسم وشفرات تجعله يغلقهما بمجرد أن يفتحهما، بينما هو يواصل متابعة مغامرات البطل كذا بشغف أو فريق الأبطال المسافرين عبر الزمن.

كان نجاحه دائماً بدرجات جيدة ليست متميزة وليست سيئة، ولكن نتيجة ذلك العام وإن كانت لا تختلف فى معظم عناصرها عن سابقاتها إلا أنها أظهرت أول رسوب له، إنها الجغرافيا وإنه التاريخ، تلك الكتب اللعينة التى لا يجرؤ على اقتحامها.

وكم كانت صادمة ومخزية تلك النتيجة، ولكنه بعد الكثير من البكاء وبعد ثلاثة أيام من الحمى، وبعد أن تلقى عقوبته القاسية واحتمل إهانة فادحة، تنبه إلى حقيقة مؤلمة هى أنه لم يفعل أكثر من أنه أقبل على ما أحب وأعرض عما لا يطيق، فلماذا تكون الحياة بهذه القسوة معه!

وتحت الضغط العنيف والترهيب والإنذارات اضطر إلى دخول عالم التاريخ والجغرافيا.

كان المعلم الذى التحق نجيب بدروسه الإضافية أشد إضجاراً من المادة العلمية ذاتها، لقد كان رجلاً محشواً بأسطر الكتب فلم يجد التلميذ من الصبر ما يعينه على احتمال سماع جملة مفيدة من شفاه

المعلم الزرقاء التى يعلوها شارب رفيع مقسوم إلى نصفين وقد قص وشذب بعناية خالية من الذوق. كان له مظهر كاتب بأرشيف يقبع منحنى الظهر وراءه الملفات الضخمة البالية ورائحتها التى تصيب بالدوار، وأمامه تتراص بعضها مع دفاتر صغيرة وأوراق الكربون التى ينكفىء عليها، وبهذه الصورة رأى "نجيب "التاريخ.

يوماً ما اعتقد "نجيب" أنه استطاع سماع درس كامل من أستاذه، كان موضوعه أحد الحروب الشهيرة فى التاريخ وسيرة موجزة لقادة كلا الطرفين المتحاربين. ولم يكن يتخيل للحظة أنه سيجد فى التاريخ لمحة من المتعة التى يسبح فيها بين صفحات رواياته، لقد رأى- بالرغم من السرد الجاف للمعلم - أبطالاًوأحداثاً جعلته يتمنى أن يأتى الدرس القادم ليحمل له باقى القصة وخاتمتها. وإذا به لا ينتظر المعلم الخشبى ويفتح الكتاب بمجرد وصوله البيت ليقرأ القصة من بدئها وحتى نهايتها.

وفى اليوم التالى فتح الكتاب من أول صفحة وظل يقرأ ويقرأ..

هاهم أبطال وفرسان يدقون طبول الحرب بلا وجل ويمضون إلى الميدان ويصارعون البشر ووعورة الأرض والجو. يحاربون ولا يعبأون بما سيحدث، يلقون بأنفسهم فى النار ولا يشمون رائحة الحريق، يتعرضون للهزيمة أو النصر ولا يبالون لكليهما. لقد ألقوا خلفهم كل وهن وكل خوف للأبد. وأنهى "نجيب" الكتاب، وذهب إلى مكتبة مدرسته ليستزيد من حكايات أبطاله، وتاه وسط ضجيج المعارك وصهيل الخيول وصليل السيوف وقذائف البنادق والطائرات المقاتلة، واشترى كتباً أخرى، آلاف الصفحات تحكى عن قادة وعن شعوب

وعن انتصارات وهزائم وعن موت ومجد وعن قوى تنزع وعن قوى تسترد، وعن حروب تستمر لسنوات، وجيوش تتأهل وتمضى نحو الموت بعزم وتلاقى الموت وتظل بنفس العزيمة، الجندى يسقط كل من كانوا بجواره ويظل يقاتل، جيش يقاتل أضعاف عدده وأضعاف عتاده ولكنه يقاتل فالأمر ليس مجرد نصر وهزيمة. كان نجيب يتجاوز مئات الصفحات التى تحكى عن تاريخ الفلسفة والعلوم والفنون ولم يكن يفهم لماذا توضع تلك الصفحات فى كتب التاريخ، ماذا يمكن أن يعنى الكلام عن الموسيقى والرقص وصناعة البيوت والتماثيل والآنية وسط الحديث عن أهم المعارك وأعظم الزعماء الذين شكلوا العالم والجغرافيا ثم أعادوا تشكيلهما كلما شاءوا؟ لذا كان يفرغ من قراءة مجلد ضخم فى وقت أقل مما هو مقدر لإتمامه. اجتاز مراهقته وهو يرى الأشياء تتضاءل أمام عينيه حتى صار كل شىء حوله صغيراً. أما أقرانه فلم يراهم سوى كائنات غارقة إما فى لعب كرة القدم أو فى كتب الجنس وأحلامه، وهو لم ير أقبح من هذين الشيئين، فهو بصددهما إما أن يصير أبلها يطارد كرة بلهاء يطاردها فريق آخر أبله آملاً أن تستقر فى شبكة يسجد أمامها شكراً لهذا الإنجاز العظيم، وإما أن يظل أسيراً لأجواء الظلام والحجرات المغلقة والخوف والطمع والجبن الذى تسبغه على الإنسان عتمة عالم الجنس الخفى.

صار عليه أن يختار نوع الدراسة الجامعية التى تناسب درجاته، ولم يخترغير التاريخ بينما اختار أبوه القانون، ولم يكن اختيار عائل البيت مجرد اقتراح ولكنه فى الحقيقة أمر. تأزم الخلاف ومارس الأب كل ألوان الضغط على الابن، وحاولت الأم إقناعه بأنه يستطيع أن يستمر فى قراءته للتاريخ كيفما شاء، فى حين تكفل له دراسة القانون مستقبلاً عملياً جيداً. وأخيراً اضطرته الضغوط للاستسلام، ولكنه لم

يرتضِ أبداً ما فُرِض عليه فشتان مابين التاريخ والقانون. وهل لو كان هذا القَانون وزناً لدى الزعماء أبطال حياته أكانوا يستطيعون تحقيق انجازاهم!

أم كان سيوجد للملاحم والحروب العظيمة مكان فى قلب وجدان العالم! أو كان للتاريخ وجود من الأساس!

التحق "نجيب" بالجامعة، ومن البداية لم يجد فارقاً بين معلم التاريخ وأساتذته الجدد سوى المظهر. كان كارهاً لكتب القانون إلى حد الاختناق، حاول التجول بين القوانين الجنائية والدولية والتعمق فى أصول النظم القانونية والاجتماعية وفلسفتها وأصول الجريمة والعقاب والقوانين الدستورية والتشريعات الدينية.

وفى النهاية ركلها جميعاً، قد يكون للقانون شىء من الأهمية ولكنه لم يخلق لهذا، إنه لن يكون أبداً رجل قانون. وبعد عامين من الفشل الدراسى وجد أبويه فى صباح أحد الأيام ورقة ملصقة بإهمال على باب حجرته كتب فيها :

"لا تتعبوا أنفسكم فى البحث..لقد صرت جندياً. "

نزع الأب الورقة وكورها بكل غيظ وكراهية السنين التى نهشت صدره لهؤلاء الجالسين على سدة الحكم والذين أضاعوا عمره فى الشقاء والتهموا اليوم ثمرة شقائه.

دس الورقة المتكورة بفم امرأته التى تصرخ وتنادى وليدها.

- اصمتى.. ليته مات يوم ولد.

6

انقضت مدة التدريب العسكرى المقررة والتحق "نجيب" بالقوات المقاتلة وهو الاسم المعروف عن جنود الجيش الملحق بالمستعمرة الشرقية.

أصابت زملاؤه خيبة أمل عندما لم يجدوا معه طعاماً أو شيئاً أتى به من الوطن. انقضت الأيام الأولى فى محاولة فهم الوضع وتفقد المعسكر ومبانيه والتعرف على طبيعة المكان. ما أصاب نجيب بصدمة هو مدى الترهل فى نظام القوات وقيادتها، حيث وجد نفسه بعد رحلة الأحلام التى قطعها مجرد فرد فى إحدى معسكرات الكشافة. فاليوم ينصرف مابين التدريبات العسكرية الرتيبة والمهام الروتينية داخل المعسكر، وكم آلمته مشاهد استرخاء الجنود ودعتهم، فكل شيء يضرب الإهمال قواعده ضرباً حتى النفوس، أما المبانى فقد كانت متهالكة شديدة القذارة فى داخلها وكانت قاعة الطعام أقوى مثال لذلك بما فيها الطعام ذاته.

انكب نجيب على كتبه التى أتى بها يلتمس فيها الأمل فى رحاب أبطاله قاطعاً بها طول آلام الليل، ولكنه لم يسلم من السخرية التى نالته من زملائه من جراء سلوكه ذلك والذى كاد يتحول إلى مشاجرة عندما انتزع منه أحد زملائه الكتاب من يديه.

وقرأ عنوانه بصوت جهورى :

-المعارك الكبرى فى تاريخ البشرية. وتعالت ضحكاته.

– أقسم أن أمك قد حملت بك سفاحاً.

تدارك الزملاء الأمر وخلصوا عنق الجندى المتبجح من يدى "نجيب".

لم يكن يتخيل أن تكون هذه الحياة هى قدر باقى أيامه إنه جندى بالفعل فى قوات تسمى بالمقاتلة، ولكن أين هى الروح التى كان يبحث عنها؟ أين يمكنه أن يجد مكاناً للعبارة المقدسة المحفورة بقلبه: " لايهم ما تفكر به، المهم هو التفكير بشجاعة والتضحية الكاملة بالحياة".

لقد صدق قائلها قولاً وفعلاً، فكيف يستطيع هو أن يتثبت من أنه صادق؟

كان عليه فى الأيام التالية أن يتلقى المزيد من الحقائق. إن مجمل عدد الجنود فى المستعمرة أقل من نصف عدد القوات الأصلية وذلك بعد إخلاء أحد المعسكرين وترحيل قواته ومعداته إلى داخل الوطن ضمن خطة انقاص عدد الجنود وتقليص النفقات.

لقد كان القائد ينسحب من مشروعه دون أن يضع حلاً عادلاً.

كل هؤلاء الرجال تحت أسوأ ظروف ممكنة، إمدادات محدودة، نقص فى الأسلحة، انقطاع الصلة بالقيادة السياسية داخل الوطن فأصبحت الرؤية للمستقبل غير واضحة على الإطلاق.

كانت المشكلة الأكبر لدى القيادة داخل المعسكر هى السلاح، فمن ناحية تحديثه ومن ناحية أخرى توفيره، فقد كان السلاح الموجود

بحوزة الجنود بالفعل يتناقص عاماً بعد عام إثر حوادث السطو المتعددة على الجنود وإجبارهم على تسليم أسلحتهم، وربما قام الجنود بأنفسهم ببيع السلاح الذى كان يصل لأيدى أهالى المستعمرة ليجده الجنود موجهاً إلى صدورهم داخل المعسكر الذى جرى اختراقه مرات عديدة.

وهكذا نُسِجَت المأساة، لقد تُركوا هنا وحدهم مسجونين بين أسوار المعسكر فى بؤرة يحيط بها آلاف الأعداء من كل جانب،لا تساندهم أسلحتهم ولا القيادة السياسية.

إنهم ليسوا مقاتلين بل مجرد كلاب حراسة لمصالح عليا فى المستعمرة. ولكن هل يتصور أصحاب المصالح تلك أن هذا الوضع الكارثى قد يُودى بها جميعاً.

فبعد إخلاء المعسكر الآخر القديم حدثت اشتباكات عنيفة بين الجنود وأصحاب الأرض الأصليين الذين تم ترحيلهم عن أرضهم وبيوتهم لبناء المعسكر وقد مُنحت تلك الأراضى الشاسعة التى تقدر قيمتها بمبالغ ضخمة لمستثمرين أجانب. وفى الحقيقة أن استخدام العنف المفرط من قبل الجنود فى تلك الاشتباكات كان له أثره فى الهدوء الذى ساد الموقف بعدها. ولكن ضعف حالة القوات فيما بعد مقارنة بتلك الفترة مضافاً إلى الإضرابات المتعددة لعمال المناجم والمصانع والهجمات المتكررة من حين لآخر على بعض المنشآت الأجنبية المقامة على أرض المستعمرة، كل ذلك يمثل علامات خطر تحتم على القيادة السياسية التعامل معها بجدية.

ولم تنظر القيادة العسكرية لدفعة المتطوعين المحدودة العدد التى تم إرسالها مؤخراً مع وعود شحنة الأسلحة إلا على أنها مجرد قرص مسكن تافه للألم.

لم يكن لدى "نجيب" الرغبة فى مشاركة زملائه جلسة السمر فى تلك الليلة ، وتمدد على فراشه ليقرأ.

كان الفراش الذى يعلو فراشه يخنقه فى أول أيامه بالمستعمرة وكأنه سقف ثقيل يجثم فوق أنفاسه ويصنع حاجزاً بين عقله وبين صفحات الكتب، حتى تأقلم عليه آخر الأمر وصار مهما لشعوره بالراحة والحفاظ على سرية أحلامه التى تعبث بها فروسية وبطولات تاريخه التى يضمها بين طيات عقله وقلبه بينما تفرغ يده من أى أثر لها. ولا تزال الجملة الأثيرة تخيم على روحه وتجعله لا يعى ما يقرأ " لا يهم ما تفكر به، المهم هو شكل التفكير، وشكله هو التفكير بشجاعة والتضحية الكاملة بالحياة ".

كان يقدس قائلها، ولكن لأول مرة يتمثل لـــ"نجيب" بوضوح مبرر لمكانته فى قلبه والتى لا يدنو منها أحد من أبطال وقادة الحروب. لم يكن الرجل يسعى لشيء، لا مكانة ولا منصب ولا زعامة ولا غنائم مثل ما نال سابقون أو لاحقون له.

لقد كان الشرف هو مسعاه، وشرفه ومعتقده ماثلين فى جملته.

بل إن عقل "نجيب" تمادى إلى ما هو أبعد، إن الرجل كان جندياً،فكل جندى شريف يماثله، لا يتطلع لشيء من وراء عمله، ولايسرع ليقاسم من حصدوا المكاسب بل يكتفى بالفخر بأنه هو

الذى انتزعها. إن كل جندى مجهول الاسم هو الصانع الحقيقى للتاريخ. ولو كان هناك من يعبأ بتسجيل بطولته بدلاً من حصر النتائج وإحصائها.

إنهم مئات الصفحات الضائعة من كتب التاريخ. لكن كم عدد الذين يؤمنون مثله بأن المهم ليس النتائج مكاسب كانت أو هزائم، المهم هو الطريق..التجربة، الفعل فى حد ذاته. رآهم نجيب قد أحبوا ما فعلوا منتصرين أومهزومين وماتوا من أجل ما ارتضوه، ماتوا محاربين.

وإنه ليتمنى أن يكونوا كثيرين أولئك الذين يعطون الجيوش الخاسرة حقها من التبجيل، لقد منحوا كل ما عندهم من أجل شرفهم. هناك حق ما أو ظلم يراه الناس قائماً بين الطرفين المتحاربين ولكن هذه ليست مشكلة الجنود..إنهم جميعاً على حق دائماً، فالشرف لا يعلو عليه شيء. وهذا ما يجعله يحتمل الوضع الراهن وسيحتمل أكثر منه، ولو كان الخيانة لشرف هؤلاء المحاربين وليس مجرد الاتجار به.

أفاقه صوت أحد الزملاء:

— ألن تأتى لتناول الشاى؟ إنه فاكهة هذه المقابر.

اتخذ مكانه فى حلقتهم إلى جوار الجندى الذى دعاه، كان يعرف هيئته من قبل فقد كان واحداً من مجموعته التى أرسلت للمستعمرة. هو ضابط بالجيش شاب حسن المظهر، ناوله الشاى وأخذا يستمعان مع المحيطين بهما إلى أغنية زميلهما ذو الصوت الجميل الشجى. ثم

دارت الأحاديث بين كل منهم والمجاورين له، سأل الضابط الشاب "نجيب" قبل أن يلتفت إليه:

- هل كنت تدرس التاريخ؟

لم يعرف "نجيب" بم يجيبه، ولكنه أومأ له إيجاباً. شعر برغبة فى أن يسأله هو الآخر

- لم أعرف أن بالمعسكر ضابطاً بالجيش غيرك ولست أفهم ذلك؟

- كان هناك كثيرون منذ سنوات ولكنهم عادوا جميعاً. أنا جئت بناء على رغبتى..مثلك.

أطرق "نجيب" ثم نظر إليه متسائلاً فأجاب الضابط:

- إذا كنت ستسألنى لم فعلت ذلك فلن أستطيع أن أجيبك عن سؤال لن يستطيع كلانا الإجابة عليه بكلمات محددة.

نظر إليه ثم استطرد:

- رغم أننا نعرفها جيداً.

طال الحديث بينهما بعد ذلك، وأدرك "نجيب" أن هذا الضابط يكاد يكون موسوعة فى التاريخ، أو بالتحديد التاريخ كما يفهمه "نجيب"، وفهم دون أن يسمع منه ذلك بوضوح أنه التحق بالدراسة العسكرية لنفس السبب تقريباً الذى تطوع "نجيب" من أجله فى الخدمة العسكرية، ووجد بقلبه نفس المرارة التى أحس "نجيب" بوخزها حين اكتشف الأمر على حقيقته. شىء ما دار حوله حديثهما دون أن يتطرقا إليه مباشرة، إنه كل ما يحتاجان إليه، كل ما ينقصهما،

إنه القائد.. الزعيم. القائد كما حلموا به، القائد كما قرأوا عنه، كما ملك عقول وقلوب جنوده وألهمها وألهبها حماسة، القائد الذى يملك توحيد الهدف وتحديده، رسم المشروع وتخطيطه والعيش عليه والموت من أجله.

فيجمع فى كفيه حيوات جنوده التى يمنحونه إياها بقلب راضٍ ومغتبط. إنهم أعلنوها أمام الجميع عندما اختاروا مكانهم هذا بكامل إرادتهم أنهم يمنحون أرواحهم ويطلبون الشرف، فأين يد القائد التى ستتلقفها وتكافح بها فى سبيل ما هو أعظم وما هو اسمى.

إنهما يقولانها أخيراً بأنهما لا يرضيا بأن يكونا حراساً للأرض وثرواتها ولأرواحهم فى هذا المكان أيّا كانت قيمة هذا العمل، إنهما لم يُخلقا إلا ليحاربا، الحرب حتى الموت.

لم ينم "نجيب" فى تلك الليلة، فقد جعلته تلك السهرة شارداً فى فراشه حتى الفجر.

فبغض النظر عن أن الليلة أحيت فى نفسه مارداً ثائراً عملاقاً،وعن أنه لم يتخيل بعد أن رأى المعسكر رأى العين أن يسعى إلى صداقته رجل كهذا. إلا أن عقله كان تائهاً فى أمر آخر، لقد كان الضابط يعرف فى نفسه سبب مجيئه وقد وجد "نجيب" توافقاً مع أفكاره، ولكن هذا لم يكن كل شيء. لم يعرف الضابط أن" نجيب" جاء ليحارب مثله وليخوض أيضاً حرباً خاصة به، إنها حرب مع الخوف. وكيف يعرف وكيف يقدر من هو مثل هذا الضابط قسوة حياة رعديد سابق؟ رعديد ينخلع قلبه لصراخ أبويه، لصوت جرس الباب أو الهاتف، لنظرة تنذر بالشر، لمجرد فكرة عابرة تحتمل حدوث

مكروه. رعديد ينهار أمام فكرة المواجهة، يلجأ للجدران للحجرات المغلقة بعيداً عن المنازعات والمواجهات. رعديد يهرب ويهرب ولا يعرف رد فعل سوى الهروب. لا تحميه حتى الجدران من خوفه فوراء الجدران الخطر ماثل فى كل مكان. تزعجه وتملؤه قلقاً واضطراباً أى مشكلةٍصغيرة بالبيت ولا يهدأ حتى يجد لها الآخرون حلاً.

لا يعرف كيف نجا من الموت هلعاً فى طفولته حين كانت الخلافات الحادة بين أبويه تتكرر من حين لآخر، والتى كانت تصل إلى التهديد بطرد الأم وأختيه وهو من البيت وتشريدهم

بشوارع المدينة ووصلت أيضاً إلى ضرب الأم . كان يرى أمانه يُضرب فى كل لطمة ويسقط فى كل سقوط للأم ويُطعن مع كل صرخة ويحترق مع طول نحيبها.

حتى ضاع أمانه للأبد. كل ذلك كان ينعكس على أعضائه بعنف وبآلام يعلم أنه لا أحد استطاعِ أن يقدرها، مع كل صوت مزعج قلب ينتفض يتمزق وهو يُجذَب بعنف لأسفل ويُجذب ولكنه لا يسقط ويتركه ويريحه فيظل يعذبه بلا انقطاع، وأمعاء تعصر عصراً ،وتحشر حشراً فتصير كقالب حجر، ودم يهرب تاركاً إيّاه ليحل محله هواء بارد كالصقيع، وأعين قاسية متحجرة، وأوصال مرتجفة كأوراق الشجر وقت الخريف ولكن حتى هذه تجد جذعاً قوياً قد يدعمها ويمسك بها.

كان مفككاً واهناً يكاد لا يقوى على الوقوف، مجهد للغاية دون أن يبذل جهداً. كم كان الموت قاسياً إذ لم يرحم هذا الطفل من عذابه.

ظل يعانى حتى فى أوقات الهدوء من اضطرابات عضوية كعسر الهضم وفقد الشهية والإمساك وصعوبة التبول، وكم تكررت إصابته بالحمى عندما كانت تشتد وطأة الخوف من المجهول الذى يتخلل أوقات الخوف من الواقع الفعلى، حتى ملت الأم من تمريضه.

ولم يشعر به أحد، ولم يشكُ لأحد؛ لأنه لا شىء سيناله سوى السخرية وربما العقاب. عندما أصبح أكثر وعياً ونضجاً فهم أنه لن يستطع أن يكمل حياته وهو يحمل مرضه أينما سار، وخاصة بعد أن فشلت كل محاولاته المتواضعة فى مواجهة أبسط المخاطر شأناً.

ولكنه كان على وعى بأنه لابد أن يكون هناك حد لمأساته، لقد فكّرجدياً فى الانتحار، فالغياب التام عن الحياة والهروب الأكبر منها هو كل ما تجلّى فى أفقه.

ما من كلمة واحدة أوحت له بأن الأمور يمكنها أن تجرى على شاكلة أخرى. لم يسمع كلمة "لا تخف"، فقط تلك الكلمة ، ربما استطاعت أن تسانده فى مواجهة تيار الخوف الكاسح.

كان الانتحار فكرة ملحة ولكنها لم تواجه واقع التنفيذ يوماً؛لأن الخوف كان يهاجمها هى الأخرى ويفندها. فقد تخيل "نجيب" كافة طرق الانتحار التى يعرفها، وتصور الخطط وكأنها أمام عينيه ووجد أن الأمر ليس بالسهولة التى ظنها. فحتى لو عزم أمره وجمع كل مرارته وعذابه فى الخطوة الأولى، فالقضية لا زالت تكمن فيما بعدها، فى ذلك الرعب الرهيب الذى سيعايشه وهو ينتظر آثار فعلته التى تفضى إلى الموت، ولن يستطع التهوين من أمرها مهما حاول، ولن

يستطع الحصول على نصيحة مجرب وصل إلى مرحلة الموت بالفعل. كل طرق الانتحار فظيعة وأفظع ما فيها هو أنه لا يعرف شيئاً عن المرحلة التى تتوسط الفعل الذى يملكه وانقطاع المعاناة برمتها. لقد سمع عن سموم شديدة سريعة المفعول لا تدع الفرصة للشعور بالألم، ولكن ما يدريه إن فعلها أن يكون الأمر فعلاً كذلك. أخطر ما فى الموضوع هو أنه فى جميع الحالات سيكون وحده، وحده تماماً مع الموت وأهواله.

كانت أفضل فكرة أتت إلى ذهنه من وحى قراءاته هى المقصلة حيث هوى أداة حادة ثقيلة تحمل الموت الأكيد على رقبته فى وضع لن يتيح فرصة للخطأ أو للعذاب.

ولكن كيف يحصل على مقصلة؟ ومن سيرضى بأن يكون جلاده؟

على كل حال بقيت تلك هى الفكرة الأفضل.

كانت كتب المغامرات تختصر بعض الوقت من أيامه الصعبة، عندما يدخل إلى عالمها فيختفى داخله تماماً ويصبح بلا وجود،فيصبح هو كل بطل وكل شرير وكل كلمة مسطورة بالكتاب.

ولكن حينما انفتحت أبواب التاريخ أمامه على مصراعيها عرف معنى أن تكون حقيقياً مع أبطال حقيقيين فعلوا كل مافعلوه على أرض حقيقية كالتى نسير عليها، ينفذون ما عزموا عليه متحملين كل نتائجه، يسيرون ولا يعلمون هل اليوم القادم موت أم حياة، وليسوا مجرد دمى تحركها إرادة كاتب يمسك بكل خيوط أقدارهم بيديه، يلقى بهم فى كافة الطرق الخطرة ثم يجعل حياقم مصونة رغم عشرات

الحلقات المسلسلة من المغامرات حتى يجدهم القارىء فى الحلقة القادمة كما عهدهم تحت الطلب.

والمعاناة إذ تشتد بما يفوق الطاقة وتمضى فى طريقها بلا مراجعة أو حساب، يمكنها أن تتفجر فى لحظة ما لتصنع حالة هى أبعد ما يكون عن موضوع المعاناة ذاتها إلى ما يبلغ حد التناقض.

فكانت تصيب "نجيب" نوبات من الرغبة العاصفة فى هتك كل الحجب التى تصبغ الأخطار بلون الرهبة والغموض والوقوف أمامها جميعاً وحده ولتأتى بكل ما لديها ليتلقاه فى قلب صدره ولينتهى كلاهما للأبد. مثلما حدث مع امرأة كانت تسكن بجوارهم وحدها فى انتظار عودة الزوج من سفره البعيد والتى لا تطول أكثر من أيام ليعاود السفر. كانت تتوقع كل أنواع الشرور والمخاطر التى لا يحجبها عنها سوى باب بيتها الضعيف أمام قبضة الخطر.

عذاب متواصل ليل نهار فى تخيل السيء والأسوأ والمفاجىء والمجهول الذى لا تعلم عن طبيعته شيئاً

سوى أنه شديد الخطورة. تتمنى أن تتعلق بأذيال الشمس الغاربة لتقنعها بأن تعود إلى قلب السماء ولا تتركها لظلام الليل الطويل.

كانت تقضى ليال كاملة واقفة خلف الباب تتسمع صوت الخطر وتتشمم رائحته. ليال كثيرة لا عدد لها ولا رحمة بها، كانت تسمع هسيساً وصفيراً وزحفاً ودقاتٍ على السلم وصراخاً وحفيف ملابس وضجيج كاسات ونحنحة رجالٍ وبصقهم وتشم رائحة سجائر وتراب وحريق.

فتعيد إدارة المفتاح فى الباب بقوى تتزايد حتى تكاد تكسره، وتدفع المزلاج مرات ومرات رغم أنها تراه مغلقا بعينى رأسها. ساعات تقضيها بين المفتاح والمزلاج.

ليال وليال تزداد طولاً وأصواتاً وروائح، فإذا بها تدير المفتاح وتدفع المزلاج لتفتح الباب عن آخره فى عمق الليل وتصرخ للجميع بأن من يريد أن يفعل شيئاً بها فليأت الآن.

وتبعاً للمقولة الطبية التى تقول بأن المرض السىء يتطلب دواءً سيئاً، فقد ألقى "نجيب" بنفسه المريضة فى أحضان الحرب.

7

تم إرسال شحنة من الأسلحة تبعت إرسال المتطوعين بشهور، كان من المقرر أن تصل قبل ذلك ولَكن أمور مالية تخص الأيدى التى تناقلت الصفقة أخرت وصولها.

ورغم أنها كانت أقل كثيراً من اللازم لإعادة تأهيل القوات إلا أنها كان لها تأثير نسمة خفيفة منعشة. ولكن باستثناء الزيادة الطفيفة للأعداد وللسلاح بقى كل شيء كما هو، والظروف السيئة التى يحياها الجنود والتى تم رفع تقارير من القيادة بشأنها على مدى سنوات لم تنل أى اهتمام.

والحقيقة أن الوضع السياسى والاقتصادى داخل الوطن كان فى غاية السوء حيث خيمت الظلال الكريهة والثقيلة للغلاء والبطالة فوق الرؤوس مما وضع السلطة الحاكمة فى مأزق حقيقى.

وتصاعد الصراع بين قوى الوطن كافة من قوى حاكمة وشعب مقهور ومعارضة ناشئة فتية وصحف تضاعفت فيها القدرة على التعبير بحرية عن الصرخات المكبوتة فى الصدور فشنَّت حملة شرسة على المشروع الاستعمارى والتى بدأت مع بداية المشروع – وإن كانت النبرة وقتها أهدأ كثيراً والأصوات أقل كثيراً– إلا أنها أخذت تتزايد مع ازدياد أزمات الوطن ومع الضعف والترهل الذى اتسمت به السلطة فى الفترة الأخيرة من قيادة الرئيس الحالى.

كان الجميع يتساءلون فى كل لحظة كيف يمكن لبلد بها ما بها من المشاكل والمعضلات أن توجه عزمها للاستيلاء على أرض أجنبية

وترسل أموالاً وجنود؟ كيف يضيع المواطن حياته وسعادته فى العمل المتواصل ليل نهار كى يحيا ليجد نفسه يمول بعمله عدواناً على أرض الغير، عدوان لا يقبض ثمنه سوى القادرين على ذلك. كان الجميع يصرخون داخل صدورهم صرخة واحدة نريد حياتنا ولا نريد أرضاً جديدة.

وهكذا كان نزيف المبالغ المتناقصة التى تُموَّل بها القوات المقاتلة والتى تتعرض لسلسلة من المتاجرات قبل أن تصل للجنود مصدر نزاع دائم بين قوى الوطن.

فى غمرة كل هذا لم يفهم جنود القوات المقاتلة شيئاً سوى أنه قد تم بيعهم. ولم يستطيعوا تقدير مدى توثق العلاقة بين أعمال الحرب والحالة الداخلية لبلادهم.

لم يعرفوا سوى أنهم محاربون ويجب أن تقف كل إمكانات دولتهم التى يخاطرون من أجلها على إمدادهم بكل ما يحتاجون.

مشروع غير شرعى وغير مدروس تنفذه قوات غير شرعية، هذا مجمل موقف الجيش النظامى الذى ظل ينظر بعين العداء للقوات المقاتلة التى لم تخرج فى الواقع سوى من عباءته.

ولم يكن موقف القوات المقاتلة من الجيش أفضل من ذلك، فلم يكونوا فى نظرهم سوى مدرسة من الجبناء الذين تخلوا عن الوطن الذى يهدر أموالاً طائلة فى إعدادهم ليسعوا وراء المناصب والامتيازات. وأنهم مهما درسوا فى كتبهم ومهما انخرطوا فى روتين تدريباتهم إلا أنهم سيظلوا جهلاء بالميدان محرومين من شرفه.

وبذلك كانت المواقف ملتبسة وغير مفهومة، والمشهد الكلى لا يوحى سوى بالفوضى، وصورة الغد غائمة للغاية فى أعين الجميع.

ومات الرئيس، كما يموت أى إنسان. ولكنه ترك وراءه الأزمة التى يخلفها وراءه كل رئيس يموت فى تلك البلاد. إنها الطريقة التى يتم بها استبدال رئيس بآخر.

فقد جرت العادة على اختيار الرئيس من خلال إجراء استفتاء شعبى على المرشحين الذين يطرحهم المجلس الاستشارى المكلف بترشيح الأسماء التى يتم الاستفتاء عليها، وغالباً ما يكون اسماً واحداً ودائماً تكون النتيجة هى الموافقة، ودائماً تثير النتيجة الحنق واللغط. كان ذلك هو النظام الانتخابى المتبع منذ انتهاء عصر الملكية الذى سقط إثر ثورة قادها رجل حرفى لا يزال يلقب فى تلك البلاد بالزعيم. كانت ثورة دموية قُتل فيها كثيرون من أفراد الأسرة المالكة ومن الثوار الذين ساروا وراء لواء الزعيم ومن الأهالى أنفسهم. وفرض السلاح نفسه فى طريق تقرير مصير الأمة، ودخل عقول الزعماء ولم يخرج منها.

وصار الزعيم هو الرئيس، ولكنه قتل بعد عام واحد على أيدى زملائه ومساعديه والذين خلفوه واحداً بعد الآخر.

كانت مدة الحكم محددة بستة سنوات قابلة للتجديد حتى ثلاث مرات بعرض الأمر على الشعب فى استفتاء عام.

ولكن باستثناء الرئيس الأخير ما من رئيس نال المدد الثلاث فقد كان يموت قبلها بطريقة أو بأخرى.

كان الجميع يعلمون تحديداً ما هى القوى التى تبسط سلطانها التام على المجلس القائم بالأعمال الانتخابية من أولها لآخرها.

لم تكن تتجاوز عصبة من الرجال الذين يمثلون دائرة لا تخرج الأسماء المرشحة من محيطها بعد توافق يجرى بينهم بطريقة ما.

8

كان "نجيب" مكلفاً فى دورية الحراسة الليلة الفائتة، بينما بدا منهكاً أكثر من اللازم تلك الليلة، فقد أجهدته للغاية قلة ساعات النوم لليال متصلة.

لم تطل جلسته مع زملائه فتركهم منغمسين فى الحديث ولعب الشطرنج والأوراق وتمدد محاولاً الحصول على الراحة لجسده ولعقله. لم يعرف ما حدث بالضبط ولكنه سمع صوت طلقات نارية متواصلة. انتفض جسده للحظة وسرت فى قلبه موجة من إحساس بغيض مؤلم يعرفه، نهض بسرعة وخرج ليتبيّن الأمر. ولم يعرف بوضوح بعد ذلك هل كل شيء انتهى بهذه السرعة أم أنه تعمد التباطؤ قبل الوصول قرب مسرح الحدث حيث رأى جثث الجنود متكومة فى المكان نفسه الذى تركهم به.

تمّ حصر القتلى الذين تجاوزوا الأربعين بالإضافة إلى عشرات الجرحى، فقد تمّ اقتحام المعسكر من أكثر من نقطة تمّ دراستها بعناية من قِبل المهاجمين الذين فاجأوا الجنود فى نفس التوقيت بفتح نيران كثيفة متواصلة.

لم يواجه الجنود فى تلك المستعمرة من قبل هجوماً تحقق فيه عنصر المفاجأة التامة والزخم الذى أربكهم وأصابهم بالشلل مثل هذا الهجوم.

ما عرفه "نجيب" بعد أن أفاق واستطاع الفهم أن نبأ موت الرئيس كان قد وصل إلى القيادة قبل قليل من وقوع الكارثة على أرض المعسكر.

كان هو أول من اكتشف موت ضابط الجيش ذبيحاً، فمن الواضح أنه قد تفاجأ وفاجأ أول مهاجم تسلل فتعامل معه بالسلاح الأبيض حتى لا يثير صوت الطلقات انتباه الجنود إلى أن يكتمل تسلل باقي المهاجمين.

أصبح من الواضح تماماً للقيادة العسكرية والسياسية أنهم أمام جيل جديد يختلف عن سابقه تماماً، استطاع أن ينفذ عمليته بكل تلك الدقة والسرعة والتخفي وأن ينسحب كاملاً دون خسائر بعد أن لقن قواتهم درساً قاسياً. وغالباً لن تكون تلك العملية هي الأخيرة.

لم يكن الوضع يحتمل إبطاء أو تسويف من قبل القيادة السياسية، كان هناك قراراً حاسماً لابُد أن يُتخذّ.

كان أول ما قام به الرئيس عندما بدأ بمباشرة عمله هو إقصاء المستشار الأقرب للرئيس السابق والذى كان عضوا بالمجلس الاستشارى. فقد وصل نفوذ الرجل إلى حد جعله يكاد يكون

الحاكم الحقيقى. ولم يكن ذلك خافياً تماماً عن المتابعين للأحداث ولكنهم لم يقفوا على مداه فقد كان الرجل قليل الظهور والكلام مفضلاً العمل فى هدوء وفى الظل. وليس من الممكن تجاهل أنه كان الوحيد من بين أعضاء المجلس الذى اعترض بقوة على ترشيح اسم الرجل الذى صار فيما بعد

الرئيس. ومع إضافة بعض الإجراءات الأخرى يمكن القول: بأن الوضع فى محيط النفوذ الرئاسى أصبح مستقراً. وجد نفسه فى مواجهة مع تحديات لم يسبق لرئيس قبله أن واجهها.

فكانت المستعمرة هى الأمر الذى طرح نفسه على رأس كل الأمور فى الوقت الذى كان فيه الوضع الداخلى أشبه بلغم ينتظر وطأة قدم الرئاسة. ولم ير مفراً من أن يعترفَ بأنه أمام خيارين لحل أضخم مشكلة استقبلته متمثلة فى المستعمرة، فهو أمام الأوضاع الناتجة عن الرخاوة الكارثية التى أدير بها أمرها إما أن يجمع عزمه ويقرر الانسحاب منها مُحتفظاً بما بقى ومكتفياً بما كان، وإما أن يخوض معركة جديدة يستلزمها الحفاظ عليها وعلى كرامة الرجال، والمعركة هذه المرة لن تقتصر على العدو، فالتطوير الشامل لوضع القوات سيتطلب تمويلاً ضخماً سيضعه مباشرة فى مواجهة شعبه.

ولم يكن لديه أدنى شك فى أن الاختيار الثانى هو الأهون على نفسه. فهو لم يتخيل أن يبدأ حكمه بأن يُتبع دور بطولة الفاتحين الذى مثّله سابقه بدور الخزى حيث يكون النصر من نصيب الرئيس السابق وتكون الهزيمة من نصيبه.

كان عليه احتمال نتائج حماقات سابقه وإرثه المسموم والتعامل مع معطيات الواقع القائم. ولكن أبعاد الموضوع كثيرة لدرجة تصيب بالعجز الذى يصيب القدم المغروسة فى منتصف طريق الوحل حيث تكون العودة موحلة والمستقبل موحل.

ولم تكن باقى الأسباب أقل دعماً له فى قرار المضى للأمام من ماء الوجه.

فكانت المشكلة الكبرى تكمن فى عماد المشروع وهى القوات المقاتلة نفسها.

فبالإمكان تخيل ما يمكن أن يحدث من قوات مسلحة مدربة متشرذمة ذات معنويات منخفضة لا تنتمى لمؤسسة تنظيمية تأتى من قلب ميدان عندما تلقى إليهم الأوامر بالانسحاب دون توفيرالمقابل من استيعابهم فى سوق العمل ودمجهم فى المجتمع المدنى أو ضمهم فى صفوف الجيش الذى كان أول الرافضين لاستيعابهم. وهو لن يعيد تفاصيل قصة أعمال العنف، وسلسلة الاغتيالات التى طالت كبار الشخصيات والاضطرابات الأمنية الحادة التى تلت عودة قسم كبير من القوات إلى داخل الوطن على مراحل –فى سبيل تقليل عدد القوات وخفض ميزانية تمويلها– والتى على الرغم من الجهود المضنية فى سبيل تحجيمها وقطع رؤوسها إلا أن أذيالها لا زالت تلعب.

وأقل ما يقال أنه لن يقدم على توجيه ضربة ثقيلة بيده إلى مقام الرئاسة الذى تزعزعه بالفعل عواصف الدولة الجريحة.

وبدأ التفكير فى توفير التمويل يدخل مرحلة التنفيذ مما ذهب بالأحداث أبعد من المتوقع، فقد تورط الرئيس فى المزيد من أعمال القمع الوحشية التى طالت كل صوت وكل رد فعل على سياسته التى اضطرت من أجل إيجاد موارد عاجلة إلى زيادة حصيلة الضرائب. وكان ذلك هو الحل الوحيد المباشر والمطروح.

9

كان من الطبيعي أن تكون أحداث المستعمرة على مدى سنوات طوال موضوع يومي تتناوله الصحف من كافة الأوجه. ولكن الصحف الرسمية تعدت ذلك إلى إفساح مساحة ليست بالقليلة فى الفترة الأخيرة للحديث عن الحدود التاريخية للبلاد، وتم فتح ملفات التاريخ وإعادة تشريحها يومياً وعرض أبحاث تتحدث عن الحقوق والأراضى الضائعة، وذلك في إطار حملة موجهة من المفهوم أنها تروج للفكر الاستعمارى.

أما الأحداث فى المستعمرة نفسها كانت تتسارعُ بشكلٍ غير مسبوق، من تدفق لقوات جديدة وأسلحة حديثة وسيارات بدلاً من تلك التى تم إتلافها ثم أعمال البناء والترميم لمنشآت المعسكر، وفُتحت أبواب المخزن عن آخرها. وامتد الأمر لبناء معسكر جديد فى المنطقة المحيطة بالمنشآت التابعة للإدارة المحلية بعدما تعرضت للهجوم الذى استهدف موظفيها، بل الحاكم ذاته. وبذلك تم استيعاب أعداد القوات المتزايدة وتوفير الحماية والدعم للإدارة وإعادة السيطرة على أكثر المناطق حيوية فى المستعمرة.

نُفخت روح جديدة فى الجنود وفى أجواء المستعمرة بعد التحسن الكبير الذى شهدته أحوال الجنود وأحوالها وخاصة بعد إعادة الاستقرار وإحكام القبضة على مجريات الأمور.

فقد تم تكثيف أعمال المراقبة والاستطلاع للحصول على المعلومات التى مكنت الجيش من القضاء على رموز المقاومة الجديدة وإعادة هيبة القوات بعد أعمال تجاوزت حدود العنف المعتاد لها سابقاً.

كان على رأس عوامل هذا النجاح وإعادة ثقة الجنود بأنفسهم تغيير القيادة العسكرية الذى تبع وصول الرئيس الجديد لمنصبه.

أما بالنسبة لـــ"نجيب" فقد كان ذلك هو الحدث الأهم فى خضم الأحداث.

لقد أثبت القائد الجديد من أول لحظة أنه يختلف تماماً عن سابقه. عندما كان نجيب يستمع إليه مع باقى زملائه وهو يقدم نفسه إليهم شعر بريح قوية تهب من بين صفحات كتب التاريخ المغلقة وتصفع وجهه وتنبئه بأن كل شيء لازال ممكناً.

كانت معالم القائد الجديد تتضح يوماً بعد يوم، تلك التى أدركها نجيب فيه من أول يوم، فقد كان يملك هدوء الحكماء الذى لا يسبر غوره، وثقة العالم الخبير المجرب. كان معلماً بحق، استطاع أن ينقل إلى جنوده الإحساس بمدى جدية وعظمة مهمتهم التى كادت ثقتهم فيها أن تتقوض.

ولم يستطع نجيب أن يصدق أن هذا الرجل بكل علمه وخبرته وهيبته لم يخض معركة ولم يطأ ميدان حرب حقيقية.

كان ذلك كفيلاً ببث بعض الخيبة فى قلب نجيب، إلا أن هذا لم يصب جوهر آماله. حاول أن يؤكد لنفسه أن مكانة القائد لديه لم

تمس ، فهم بالفعل على أرض معركة وهو قائد نصر بلادهم الثانى فى تلك الأراضى.

أخذت التدريبات تزداد كثافة وجدية وتنوع. كانت الصبغة العامة لعهد هذا القائد هو إرساء المهنية على قاعدة علمية متينة. وبدا ذلك فى إعادة تأهيل فرقة العمليات الخاصة لتخطى كل الصعاب التقنية والفنية للمهام.

10

تم كل شيء فى سرية بالغة ولم يكن على المواطنين سوى تلقى الخبر، فمع كل ما لديهم من سخط وحنق إلا أن الشكوك فى نوايا الرئيس لم تبلغ حد توقع ما حدث.

وهكذا استيقظ الجميع يوماً ليجدوا دولتهم تخوض حرباً جديدةً فى أرض جديدة. لم يكن هناك ما يمكن قوله فقد صمت الجميع، حتى الجرائد المسائية لم تتحدث عن تفاصيل الحرب

فى يومها الأول سوى من خلال كلمات مقتضبة.

ومنذ اليوم الأول بدأ قصف جوى كثيف يعصف بالإقليم الجنوبى، تواصل على مدى أربعة أيام وجرائد الوطن تصرخ وجرائد العالم تستنكر وتشجب .

وتراخى القصف فى يومه الأخير ليبدأ الهجوم البرى فى اليوم الخامس.

وعلى الرغم من أن السلاح وجو المعارك لم يكن غريباً على تلك

الأراضى إلا أن القيادات لم تتوقع أن يكون الدفاع بمثل تلك الشراسة. وانبرى المحللون يتهمون واضعى خطة الهجوم بالإهمال الذى جعلهم بطول مدة القصف وتراخيه يعطون الفرصة لصفوف المدافعين بتجميع قواهم فكان لديهم الوقت ليخططوا لرد فعل

انتقامى عنيف على الخراب الذى حل ببلدهم وعشرات القتلى الذين ملأوا الشوارع والبيوت.

فكأن الطائرات كانت تقذفهم بالأدرينالين!

وصلت أنباء الارتباك الذى أصاب القوات المهاجمة إثر الصدمة التى أصابتها بعد أول ضربة والتى فاقت بكثير كل ما توقعوه.

وبعد أيام من القتال العنيف وقع الخلاف بين القيادات السياسية والعسكرية بشأن الاستمرار فى الحرب، فكانت القيادة العسكرية تميل للانسحاب والحفاظ على حياة الجنود بدلاً من الاستمرار فى حرب خطرة ستنتهى فى أفضل الأحوال إلى الاستيلاء على أرض خربة مدمرة.

لم يكن ذلك كل شىء فقد كان موقف الدفاع حرج أيضاً، فالعديد من العمليات كانت تجرى فى أراض مأهولة بالسكان، بالإضافة إلى عدم وجود قيادة موحدة تحافظ علي تماسك القوات وبذلك أصبحت التوجهات فردية والضرب عشوائياً.

وأخيراً تمكنت قوات الهجوم من حصار خط تموين الدفاع والذى أُمطِر بوابل من نيران المهاجمين. وانتهت المعركة لنفاد ذخيرة الدفاع بعد توقف طرق الإمداد.

والمحصلة آلاف القتلى والجرحى من المقاتلين فى كلا الطرفين ومن المدنيين ومدينة تم تخريب قطاعات واسعة منها.

نصب الجنود المنهكون خيامهم بعد الاستيلاء على مقر القيادة المدنية للإقليم المنفصل وتأمين طرق التموين والإمداد ليعاد تكرار

سلسلة أحداث المستعمرة السابقة ولكن بعد حرب أكثروحشية من سابقتها.

المدينة التى تم الاستيلاء عليها لم تكن سوى إقليم جنوبى تابع للمملكة ولكن نظراً للإهمال البيّن الذى تعرض له السكان من الملوك المتوالين والذى عزاه الأهالى إلى اختلاف لهجتهم ولونهم ومعتقداتهم وتميزهم بصبغة ثقافية وتراثية خاصة، لجأ قطاع من الأهالى لحمل السلاح لحل مشاكلهم بطريقتهم حين عجزت مملكتهم عن هضمهم واستيعابهم .

وسجل تاريخ معظم ملوك تلك البلاد معارك تم خوضها فى أراضى الانفصاليين الجنوبيين. وحقق المسلحون الانفصال فى عهود الضعف التى صاحبت الملوك المتأخرين وذلك بعد سلسلة من المعارك القاسية الوحشية التى ميّزت تاريخ ذلك الإقليم.

ولكنهم كانوا على موعد جديد مع الحرب الطويلة ولكنها تلك المرة كانت فى مواجهة الجارة الجنوبية التى رأت أن الصيد الذى كانت تطمح إليه من عشرات السنين أصبح خالصاً لها. وأصبح بالفعل من ممتلكاتها بعد أن وضعت الحرب أوزارها وأبيد آلاف من سكانه. ولكن المقاتلين عادوا إلى معاودة المقاومة التى استمرت سنوات بلا توقف حتى طردوا السادة الجدد. وأصبح الإقليم التابع اسمياً لدولة الجنوب واقعياً دولة صغيرة مستقلة بين

الدولتين الشمالية والجنوبية.

وبعد إعلان الجمهورية كان حلم كل رئيس استعادة الإقليم الذى كان يمثل جرحاً أسفل خارطة البلاد. ولكن لا أحد منهم استطاع أن يُدخل الفكرة حيز التنفيذ.

إلى أن فتح الرئيس السابق الباب الذى لا يُغلق بسهولة. فكانت استعادة الحدود الشرقية من الجارة المنهارة مقدمة لحرب الجنوب. إلا أن الأمور جرت فى المستعمرة الشرقية وفى الأحوال الداخلية بما لا يدع مجالاً للتفكير بالتمادى فى أحلام الفتوحات.

ورغم كل الظروف المثبطة داخل البلاد إلا أن الرئيس الجديد كان يرى بما يشبه الوحى أن تلك هى الفرصة التاريخية لاستعادة أطراف المملكة المبتورة، وقدره أن يكون هو تحديداً زعيم تلك المرحلة لم يأت عبثاً، فهو لها وهى له.

من العوامل التى رآها الرئيس مهيّئة لتلك الفرصة هى روح الحرب التى نشأت ونمت فى نفوس الجنود والتى صنعتها يد القدر ولن تضيعها يده هباء دون استغلالها أفضل استغلال. فأصبح تحت تصرفه الآن جيش حر هائل العدد تحت قيادة عسكرية حكيمة، ألقاها القدر فى طريقه ليجعلها ذراعه فى الحرب.

كما أن حالة الحرب منذ بداية المشروع هيأت المواطنين للتعامل معها واحتمال كافة نتائجها؛ وبذلك وضعت أحداث المستعمرة الأخيرة تلك الحالة فى أقصى حدودها والتى من الصعب الرجوع عنها فى مقابل استغلالها لمواصلة الطريق.

والعامل الجدير بالذكر هو وضع حل حاسم لمشكلة تهريب السلاح عبر الحدود الجنوبية إلى داخل البلاد ومنها أيضاً إلى داخل المستعمرة الشرقية لتمد الأهالى بالسلاح الذى تقتنص به رجاله مما يصيب الجنود بسخط هائل حيث يرون أن مواطنيهم يبيعون السلاح لأعدائهم.

كان الناس يسيرون فى الشوارع هائمين كأنهم لا يعرفون أين سيذهبون. لقد غُرِّر بهم المرة تلو المرة، والآن صاروا يرون أيديهم خاوية إذا مدوها إلى جيوبهم، والحسرة تأكل قلوبهم وهم يرون بعض المأجورين من العاطلين يقيمون الأفراح والليالى الملاح على شرف زعيمهم الذى قادهم إلى النصر.

لم يفهم أحد تلك الكلمة،لم يفهموا على من انتصر الزعيم وبم جاء إليهم الزعيم بعد أن أفرغ جيوبهم، أرض خربة وأيام قاتمة!

لقد أصبح قائداً لشعب من الكادحين المعدمين، وسيضطر القائد بعد قليل أن يطعمهم التراب بعد أن كسدت أسواق العمل وبعد أن تفرغ لأعمال الجغرافيا والتاريخ. ولم يكن أمامهم سوى أن يدعوه يلهو بألعاب الحرب وحده؛ لأنها ليست لعبة الشعوب المفضلة.

11

برّ "نجيب" بقَسَمه فكان فى خط الهجوم الأول. ذلك القسم الذى بذله لنفسه فى اليوم المشئوم الذى جرى فيه اقتحام المعسكر الشرقى. يوم أن رأى لديه ساقين مرتعشتين وقلب خافق أمام

صديق ذبيح وأكوام الجثث، وذلك رغم كل شيء. ولكنه أقسم ويشهد عليه إعصار الغضب وعواصف النشوى وصواعق العزم على الطريق الذى لا رجوع عنه أو منه، أنه سيظل

الدرع الأول أمام الموت طالما بقيت فيه حياة. لأول مرة يرقد نجيب وهو خالى النفس، لأول مرة يعرف معنى الراحة بعمقها الحقيقى، لقد خاض المعركة الحاسمة ضد عدوه القديم قدم حياته، وكسر سلاحه الرهيب الذى وجهه له تحت وجه المحارب الجنوبى. أخذت لحظات الحلم التى خطاها على طريق النصر تتوالى على ذهنه وتغمر كيانه بأمواجها التى مسحت كل جسده المكدود وذراعه المصابة التى تحسسها بنشوى هائلة، مستعيداً ذكرى كل ضربة.. كل تقدم.. كل أمر بالهجوم صدر إليه وغالَى فيه إلى حد الجنون.

كان مشهد جثث زملائه فى الشرق هو الأول فى حياته. ظل بعده أياماً لا يستطيع تمالك نفسه، فكانت نكبته الكبرى.. كيف سيقضى حياته القادمة التى نذرها للقتال؟ هل هناك حرب بلا جثث؟!

أما فى ليلة النصر تلك أجيبت كل الأسئلة وحدها، إجابة باترة حزت عنق الماضى وخضعت روحه لآخر أطوار خلق نجيب الجندى الحق.

لقد صار مشهد مئات الجثث المرتمية فى كلا الطرفين فى عينيه هو مظهر طبيعى ومنطقى لعظمة النصر وقوة الهدف. لقد جاء الأبطال إلى الوطن بمملكة الجنوب.

لم يكن أمراً سهلاً، فعلى الرغم من عشوائية الدفاع وعدم اتساقه –حتى أن رصاصهم كان يحصد جنود المهاجمين وجنودهم– إلا أنهم صمدوا وقاتلوا بكل قوهم أياماً حتى نفد آخر ما بقى من ذخيرهم. لقد كانوا أبطالاً بواسل هم أيضاً.

نام "نجيب" نوماً ملأ عينيه الظافرتين اللتين استحقتاه عن جدارة.

لم يكن القائد يفكر فى المعركة التى مضت سوى لإعادة خط الحسابات من جديد.

وفى كلمته لجنوده أوضح ما كان يشغل تفكيره وما كان لابد لرجاله من التأهل له، فالحرب لم تنته، وما اجتازوه لم يكن سوى معركة واحدة هى معركة البداية ولازالت أمامهم معارك البقاء.

12

سنوات من المعارك مضت فى جنوب البلاد، ولا شيء يصل من أخبار الإقليم سوى الهجوم والدفاع المتكررين وكأنهما بلا نهاية.

وصارت أنباء فظائع الدمار والقتلى من الجانبين أمر اعتيادى للغاية مثل: الذهاب للعمل، ونزول الأسواق، ودخول الحمام. فتلك ليست الحرب الوحيدة فى العالم المعاصر وضحاياها ليسوا الأعظم عدداً، كما أنها فى الجنوب عمل يومى لا يمثل عملاً حاسماً ولا ينتهى بنصر أو هزيمة، وكأنه روتين لابد من أدائه فى الحروب الطويلة التى تستنزف قوى كل من الجانبين على مر السنين. حيث تُستخدم فيها تنوعات هائلة من تكتيكات الحرب التى يجتهد كلا الطرفين فى تجديدها ومفاجأة العدو بها أملاً فى الوصول إلى مرحلة الحسم.

ولكن خبر غريب فى ذاك اليوم قطع ملل روتين السنوات الفائتة، لقد أعلنت القيادة العسكرية انفصال الإقليم الجنوبى عن البلاد وخضوعه التام لإدارة الحكم العسكرى القائم بتلك المنطقة.

وتبع ذلك مهام عسكرية قامت بتصفية أعمال عدد من الشركات الأجنبية التى وجهت حجم هائل من الاستثمارات فى تلك البلاد لأعمال التنقيب واستخراج النفط والمعادن بما فيها الذهب.

ولأول مرة يتضح للمواطنين الحجم الحقيقى للمتاجرة العالمية بأرض الجنوب. وأصبح الصوت العالمى المتحدث بشأن قضية الجيوش

الملحقة أو الجيوش الحرة التى تتمادى فى أعمال سرقة الأراضى والإرهاب خارج الحدود دون رادع من الدولة الأم بل بموافقتها وبرعايتها عالياً ومقلقاً.

جاءت نذر الحرب التى لم يعلم أحد كيف ستكون، ولكن الجميع يعلم أن هناك حرب جديدة قادمة.

حاصرت القوات التى أرسلتها عدة دول -بالاشتراك مع قوات حليفة من الجيش النظامى خرجت من الوطن الأم- القوات المقاتلة فى أرض الجنوب.

ورغم التفاوت الكبير فى العدد والتسليح، قاتلت القوات المُحاصَرة باستماتة على الأرض، وهام الأهالى على وجوههم مرة أخرى هرباً من النيران والقذائف الجوية الشرسة.

ولم تنفع الشجاعة الفائقة فى حرب كتلك واستسلمت البقية الباقية من القوات التى فقدت الكثير مابين فارين وموتى. وكتبت الصحف عن نهاية المغامرة الجنونية لجيش المرتزقة والهواة الذى حارب بالأمس بشجاعة ليضم أراضى الجنوب إلى دولته، واليوم حارب بحماقة وخرق وبشجاعة من أجل فصلها عن الوطن.

أما فى المستعمرة الشرقية فقد تمّ سحب دفعات من القوات المقاتلة على مدى سنوات الحرب الطويلة فى الجنوب بعد أن عجزت الدولة عن حشد المزيد من المتطوعين فأصبح وضع الجيش المرابط بها فى غاية الصعوبة إلى أن وضعت الأحداث الأخيرة نهاية التواجد العسكرى بها ولكن ذلك لم يكن سوى بأيدى الأهالى أنفسهم.

ومات الرئيس قتيلاً بأيدي لا زالت مجهولة، وجاء رئيس جديد بنفس الطريقة ليحمل فوق عاتقه كل خطايا سابقيه، وكان أول عمل عليه القيام به هو تصفية بقايا الوضع السابق.

عُثر فى أوراق الرئيس السابق على مواثيق سرية بينه وبين أطراف دولية تخص الوضع فى المستعمرة الجنوبية، وكانت فى مجملها اتفاقات تجارية. كما عُثر على أوراق تثبت تلقى الرئاسة منها مبالغ لدعم مشروعها الاستعمارى، والتى كانت قياساً على مشوار الحرب الطويل مبالغ تافهة، ولكنها كانت تملك أكثر من قيمتها المادية قيمة الدعم المعنوى الذى يشبه المباركة.

وعُرفت فيما بعد تفاصيل تمرد القوات المقاتلة على قائدها إثر معارضة القائد الحكيم لرغبة بعض أفراد القوات فى إجلاء العناصر الأجنبية التى تستثمر ثمن دمائهم أمام أعينهم، وتنتقص من سيادتهم على الأرض التى دفعوا ثمنها وحدهم. قامت الحركة المتمردة بتنفيذ إرادتها بعد التخلص من القائد ثم بعد ذلك فرضت قيادة جديدة بديلاً لها، ثم إعلان الاستقلال ثم كان ماكان.

بقيت قوات حليفة فى أرض الجنوب لحفظ السلام، وربما بقدرما لحفظ سريان المواثيق السابق ذكرها. ولم يكن نصيبها فى الحرب الطويلة ضد الشعب الجنوبى الذى كُتب عليه القتال أبداً، أفضل من نصيب سابقيها.

وطُوِيَت صفحة عادية كصفحات الكتب القديمة لأحلام ليست جديدة؛ ليظل حديث الرواة عنها وشهود العيان يصور لسنوات طويلة حكاية أراضٍ دُمِّرت عن آخرها وشعوب ضلت طريقها إلى بيوتها بعد أن سويت بالأرض فظلت شريدة إلى أن تحصدها النيران.

13

كانت "نورا" أجمل طفلة يمكن رؤيتها بين سكان مدينتها، وقد نمت مع طفولتها أنوثة صغيرة ناشئة ميزها وفصلتها عن بنات جيلها. شعرت بها لأول مرة كصفة مخزية لصقت بها دون إرادها وذلك عندما غازلها أحد الفتية مغازلة تليق بامرأة وليس ببنت صغيرة لم تتجاوز الثامنة من عمرها.

أحست يومها بأنها تلقت إهانة مخجلة علنية أمام المارة جعلتها تمضى خافضة الرأس جريحة الكرامة أو لا تدرى ربما جريحة الطفولة. ظلت أياماً تشعر بثقل الضربة التى تلقتها لتخلع عنها ثوب الطفولة الذى لا تريد التخلى عنه للأبد. لقد كان تاجها الذى جعلها أميرة البيت وأميرة أمها وأبيها. وقد وضعت فيها الأم التى تكاد تكون ثكلى ما بقى لديها من طاقة الحياة والحب.

كانت تقضى كثيراً من الوقت فى تلوين الرسوم غير الملونة، فقد كانت "نورا" مغرمة بالألوان على الرغم من ضعف قدراها فى الرسم وتعشق الصلصال الملون على الرغم من عجزها التام عن تشكيله، كانت تضعه فى غلاف الشيكولاتة البلاستيكى المقوى والذى صمم بأشكال متنوعة لتتخذ قطعة الشيكولاتة نفس الشكل. وهكذا استطاعت استغلال الحلوى لتحصل على قوالب لصلصالها وللشمع الملون أيضاً.أول كتاب قرأته وقتها كان فى مكتبة المدرسة حين كان المعلم يصطحب تلاميذه فى زيارة للمكتبة ويقوم بتوزيع الكتب

عشوائياً لإلزامهم بقراءها، لم تحب عنوان الكتاب فهو لم يكن قصة كما تمنت وإنما كان يتحدث عن الألوان. هى تحبها ولكن لابد أن موضوع الكتاب صعب وعلمي. اضطرت لفتحه وتصفحه، ولأول مرة تعرف أن هناك ألوان ساخنة وألوان وباردة ولم تفهم ما علاقة الألوان بالحرارة.

استطاعت بعد وقت أن تفهم أن الألوان تبعث شعوراً ما يجعلها قابلة للتصنيف. وفهمت أيضاً لم تَرَ اللون الأزرق على صنبور المياه الباردة والأحمر على الساخنة. قرأت أيضاً عن "قوس قزح" ولكن الكلام كان صعباً ولم تفهمه تماماً ولكنها فهمت أنه ليس ألوان تتواجد فعلاً فى السماء ولكنه نتاج عملية معقدة لا تفهمها لها علاقة قوية بضوء الشمس، وبطريقة ما فهمت فى صفحات أخرى أن ما يحدث عندما تلهو بقطع الكريستال التى هيم بها عندما تنظر من خلالها تحت نور الشمس أو فى مواجهة النافذة يشبه الكلام عن "قوس قزح" بعض الشيء،أى أن الألوان ليست موجودة بالفعل داخل الكريستال.

كان كتاباً صعباً ولم تقرأ فيه كثيراً ولكنها ظلت طوال عمرها تذكره. كانت تحتفظ بكتر يزداد ضخامة مع ما تضيفه إليه على مدى الأيام ولا تنسى ميعادها اليومى للتمتع بفحص كترها. كل ما يمكن تخيله من بدائع الألوان المتواجدة فى صورة أشياء كالخرز والأزرار والورود الصناعية بالإضافة إلى قطع الكريستال التى بقيت من النجفة القديمة والقطع الدقيقة جداً التى تزين الملابس والحلى والتى كانت تخلب لبها. لم يعلم أحد بأمره وهى كانت تفضل ذلك ؛لأنه يجب أن تكون لها أسرارها الخاصة. كما كانت لها خصوصيتها الكاملة فى الأوقات التى تجلس فيها أمام نافذة حجرها تتطلع إلى زرقة السماء

وبياض السحاب الذى يتشكل ويبدل أشكاله فى سهولة، وإلى خضرة الشجرة التى تطل على حجرتها وتزهر من أجلها فى الربيع. وأسراب الطيور العائدة عند الغروب والتى لا تتميز لسوء الحظ بألوان مبهجة ولكنها عوضاً عن ذلك تطير مخترقة السماء البعيدة وتلامس السحاب السحرى وفوق ذلك فإنها تعود إلى بيوتها معاً فى صحبة لم تعرفها هى يوماً.

كانت وحيدة للغاية ولكنها لم تشعر بذلك؛ لأنها دوماً كانت بصحبة الألوان والأشياء والسماوات. لم تتخيل يوما أنهم لا يعرفونها كما تعرفهم.

لقد كانت تحب حياتها وكل شيء عرفته حولها بكل طاقتها، إن عينيها تُحبان وأذنيها تعشقان وعقلها وقلبها يترقرقان مع الموجات الهادئة للحياة.. مملكة الجمال. أكثر من مرة تجدها أمها قد نامت وهى مستندة إلى حافة النافذة، لم يكن نوماً بقدر ما هو تواصل حقيقى مع زرقة السماء التى تخلق ضوءا بديعاً ولوناً غامضاً تغرق فيه عيناها المغمضتان اللتان تسبحان وسط اللون الأزرق ،وعندما تفتحهما تشعر بأنها ليست سوى قطعة من السماء.

اعتادت أن تلزم ذيل الأم فى بعض أوقاتها التى تتخلل ساعات اللعب الطوال. واعتادت أن ترى أخيها الغائب دائماً فى عينى أمها، إنه ألم لم تفهمه ولكنها تحسُّ به يعصر قلبها وهو يتسللُ إليها من عينى الأم. صاحبتها يوماً وهى تفتح حجرته وتنظفها وتخرج كتبه من الأدراج وترتبها وتعيدها ثانية وتفرد ورقة قذرة وتقرأها ثم تخبئها.

ورقة كتبت بخط يده قرأتها بعد سنوات، لقد كانت الرسالة التى تركها قبل رحيله. رغم صغر سنها إلا أنها كانت تتجنب أن تسأل

أمها السؤال الذى طالما دار برأسها وينعقد لسانها رهبة قبل أن تنطق به أمام أعين الأم ذات الحزن المخيف.

ولكنه انطلق من لسانها يوماً دون أن تشعر – أين ذهب نجيب يا أمي؟

سهماً من النار اخترق بؤرة ملتهبة فى القلب – ليتنى أعلم!.

لم تسمع من الأم غير هاتين الكلمتين. إنها لم تعلم وظلت لاتعلم هل هو حى أم ميت، وظلت تتمنى حتى لو تعود إليها جثته.

كان لدي "نورا" كتابان صغيران مليئان بقصص الأطفال لكتَّاب من كافة أنحاء العالم ورسوم بأيدى فنانى الشرق والغرب والشمال والجنوب، كان كل ما بقى لديها من أثر الأخ الذى ذهب. كانا رائعين بحق، وقد قرأتهما عشرات المرات وحفظت تفاصيل رسومهما، ولكن بعد رحيل "نجيب" الذى أهداها إياهما خيمت الرهبة على غلافهما الذى احتوى بين ضفتيه عالما للجمال امتزج بالغموض والأصداء الغريبة بعد اختفاء اليد التى أتت بهما فى عالم مجهول.

مرت الأيام فى سلاسة الحلم ونورا غارقة فى ألوانها وألعابها، حتى صدمها يوما ما لون الدم الأحمر. لقد نزفت كثيراً ولكن دون ألم. هالتها خطورة الأمر، إنها تموت بلاشك. ضحكت الأم بحنين السنين التى مرت دون أن تدرى وهى تنظر لوجه الابنة الهَلِعِ، لقد صارت أنثى، كان هذا ما ينقص ملاكها الفاتن وإن كان باكراً بعض الشيء. ستنضج قبل أوانها بين قريناتها، وتمنت ألا يجلب لها جمالها المتاعب.ولم يقف الأمر عند ذلك ولكن كان هناك الصدر الذى تنامى حتى احتاج إلى رابطة. صارت تشعر بالحرج دوماً بين زميلاتها وأمام معلميها. لقد

صارت أنثى وهذا عيب، صدرها بارز وهذا مخجل ابتسامتها ساحرة وهذا حرام. لقد سجنها جسدها وسرق منها حرية الطفولة.

صارت المغازلات أكثر فجاجة والنظرات أكثر تطلعاً حتى أنها تكاد تتعثر فى الأعين التى انتثرت أمام خطواتها.

أما هو ذلك الذى تسلل إلى أحلامها فكان أمير عالمها هى بقوانينه، عالمها كما هو وليس كما يريدونه. إنه حلم ولكنه رجل حقيقى موجود هنا أو هناك سيعيد إلى حياتها المضطربة اتزانها، إنها طفلة وأنثى فكيف تحيا فى سلام؟!

امتصت الروايات الرومانسية كثيراً من عاطفتها الغامرة التائهة واستطاعت أن تجد فيها أوقاتاً من السعادة القديمة. لم تنتبه وهى هائمة فى قراءاتها أنها تتشابه جميعاً فى نفس تسلسل الأحداث.

فالحبيبان يتقابلان صدفة ويحدث بينهما سوء تفاهم بشأن هوياتهما ويجمعهما القدر فى عمل ما معاً.. وتبدأ العاطفة فى نسج خيوطها بينهما دون أن يشعرا وبمجرد أن يأخذا فى التآلف تظهر امرأة غامضة فى حياتهما لتملأها بالشكوك والغيرة ثم يتكشف فى النهاية الالتباس فتعرف أنها أخته أو أحياناً امرأة تسعى إليه ولكنه يرفضها وتأتى أخيراً لحظة الاعتراف بالحب ثم يتزوجا. كل ما هناك أن الأسماء والمهن والبلدان تتغير فى كل مرة. ورغم ذلك لم ينتابها للحظة إحساس بالملل.

كانت تشعر بأنها فى كل خطوة تتقدم بها فى الحياة تخطو نحو أحلامها. عندما صارت بالجامعة ألفت نفسها أكثر خجلاً فهى مع

كل يوم تزداد انفصالاً عن الواقع والتصاقاً بأحلامها، فكم كان الواقع قبيحاً فى عينين جميلتين لم تألفا إلا الجمال.

ذات يوم تلقى الأب اتصالاً هاتفياً من مكتب أحد الوزراء والذى يشغل مكاناً فى غاية الحساسية فى قلب الأحداث، حيث قام مدير مكتبه بتحديد موعد معه لزيارة الوزير.

وبعد كثير من الالتباس فهم أخيراً أن الوزير هو الذى سيقوم بزيارته.

لم يزد فى حديثه مع زوجته عن سؤالها عما تعتقده سببا للزيارة.

ولكنها أجابته بأنهم لن يأخذوا أكثر مما أخذوه. كانت أفكارهما سارحة فى الابن المفقود وماذا عساها أن تكون تلك الأخبار بشأنه والتى يحملها وزير يأتى اليهم بنفسه!

لم تطل الأيام كثيراً حتى موعد الزيارة المحدد ولكن الأفكار هى التى استطالت وتمددت حتى ابتلعتهم فى سكون عنيف عَمَّ البيت طوال أيام الانتظار.

وجاء الوزير الذى كان لا يزال فى طور الشباب، تجاوز الخامسة والثلاثين.. حسن المظهر.

وبعد أن مضى ظل الصمت مسيطراً على البيت، لقد كان سبب الزيارة هو "نورا".

رجل الرئاسة هذا تقدم إليها رسمياً. ولم تعرف الفتاة وهم يسوقونها لمصافحته أن هذا الرجل ذا الشعر الأسود الناعم المهيب وذا المقام المرموق الذى لا تعرف كنهه تماماً يريد أن يكون زوجها.

كيف عرفها وكيف حدث الأمر!، لم تكن هناك إجابة لدى أحدهم ولكن كان يجب أن تكون هناك إجابة محددة وسريعة على طلب السيد الوزير.

تساءلا فى نفسيهما مراراً هل هناك سبب لرفض الوزير. فبصرف النظر عن منصبه فهو لا زال شابًا ولم يسبق له الزواج ولم يكن هناك ما يسيء إلى سمعته كرجل. كل ما فى الأمر هو أنه رجل الرئيس وهذا ما جعل الأب ينظر إلى جمال ابنته بسخط فقد كان السبب فى وضعهم الحرج، لماذا بيتهم تحديداً؟ الجمال ليس كل شيء. إنه بيت ليس باستطاعته أن يصافح ذيل الرئيس، مصاهرة.. إنها مصاهرة.

ولكن الخطبة تمت والرجل صار مشروع صهر. البنت صغيرة وبريئة وفى رقة أوراق الورد، ولكن الرجل أثبت لهم أن دماثة خلقه طبيعية واستقامته غير مصطنعة. كما أن البنت تعلقت به كثيراً، لقد غمرها بحنانه الفيّاض حتى كادت تشعر بأنه أب.

زياراته التى لم تكن كثيرة بسبب مشاغله كانت أعيادها الخاصة.

كان بيتاً تسكنه وفى غيابه تشتاق لسكناه، ومعه عرفت كيف يصير الحبيب بيتاً.

فى مرة أصابها إعياء وأتى لزيارتها وعندما صافحته قبّل وجنتها أمام الأبوين، لم تشعر فى قبلته بغضاضة، أما الأبوان فادعيا أنهما لم يَرَيا شيئاً.

عندما تمت الزيجة شعر الأب ببعض الراحة من عناء زيارات الوزير، فقد كانت تسبب له عذاباً ما فى إطار ذكرى ما، وهو يريد أن يتخلص من كل عذاب باق لديه.

لقد كان ما كان وليكن ما يكون. إنه لم يُسلّم ابنه ولم يُسلّم ابنته، لقد كانا راضيين بما يقدمان عليه.

لم تشعر نورا بالخوف وهى مقدمة على حياة جديدة فى بيت جديد بصحبة رجل غريب. فالزوج العاشق لم يخالف فى لحظة ظنها فيه، كان دافئاً وحنوناً إلى درجة جعلتها لا تفكر حتى فى أحلامها فقد كانت تحياها بكلّ تفاصيلها. ومنذ اليوم الأول ألقت نفسها فى أحضانه غير وجلة ولا هيّابة.

لم تسأله يوماً كيف يقضى يومه فى عمله، ما تعرفه هو أنه كلما ازداد منصب الإنسان علواً كلما ازدادت مسئولياته وهمومه، وهى لم ترغب فى أن تعرف تلك الهموم، إن ما لها هو تلك الساعات القليلة التى تبقى لها، هى ملكها وهو فيها لها هى وحدها حين يستطيع أن يحملها بجناحيه بعيداً عن هذا العالم. وهو يفعل ذلك بكل حب وتفان؛ ربما لأنه هو أيضاً راغب فى ذلك.

هى تعرف أن الإنسان يلتقى فى عمله بأشخاص سيئين، فهناك كذب وهذا أمر عرفته متأخراً جداً عن باقى أقرانها، سنوات طوال وهى لا تعرف أن هناك صدق؛ لأنها لم تفهم معناه أو قيمته فى مواجهة غريمه الكذب. وهناك سرقة وقد عرفت ذلك متأخراً أيضاً عندما ضاع قلمها الغالى الثمن الذى كانت شديدة التعلق به لتجد زميلتها التى تجلس إلى جوارها تكتب بقلم يشبهه فى اليوم التالى، لم يخطر ببالها شىء سوى أن زميلتها اشترت قلماً يشبه قلمها العزيز الذى آلمها غيابه كثيراً.

ولكنها فوجئت بعقابٍ علنى تتلقاه الفتاة وتوزيع لبعض المتعلقات التى كانت بحوزتها على بعض زملائها وقد أعطوها هى القلم الذى يشبه قلمها بعد أن أقنعوها بصعوبة أنه قلمها هى بالفعل.

لقد رفضت بشدة أن تأخذه فقلمها ضاع وهذا هو كل شيء. وما عرفته يومها كان كبيراً جداً وخطيراً جداً حتى أنها لم تفرح بعودة القلم والأكثر من ذلك أنها كانت تشعر بالغثيان كلما أمسكته.

وغير هذا سمعت عن القتل، وهذا لم تكن تصدقه، لم تكن تريد تصديق أى شيء بشع مثل تلك الأشياء. لقد علمت وأنكرت وهربت إلى العالم الذى تعرفه وإلى الحلم بالعالم الذى تريده. كانت تعلم أن مئات الأشياء تضايق زوجها فى عمله ولكنها تريده دوماً خالصاً لها كما تعرفه دون ضيق ودون هموم.

إنها تتمنى أن تفعل لأجله أى شيء لتخفف عن قلبه المثقل ولكن ليس لديها سوى أن تنسى وأن تُنسيه. هناك جوع وبرد وإنها لا تصدق وإنها تنسى. وهناك ظلم..إنها كلها معانى قبيحة مجردة تقاوم أشباحها بهناءة العيش، بالتفانى فى تحضير أجود الطعام وفى تجميل البيت وتجميل نفسها وإسعاد الزوج الكادح فى السرير. فسعادتها وسعادة حبيبها هى الحل القاهر لكل الشرور.

الحب والسعادة هما دواؤها هى وكل من تحب. هما دواء العالم فى نظرها. كانت تعتصر قلبها فى صدره ولا تدع بينهما فاصلاً لتتأكد تماماًمن أنه لم يبق داخله شيء.. أى شيء خارج عالمهما، كانت تشعر أن لديه نفس الرغبة حين يتلقى إقبالها عليه بإقبال أشد منه حرارة.

إنها تستطيع بحبها الفائض أن تغسل عالمهما دائماً فيظل جديداً نظيفاً، يظل كما هو حتى لو هدم العالم من حولهما طالما أن حبه يعانقها ويلفها ويحجبها عن سوءات العالم، عن الخطايا التى يرتكبها البشر بعيداً عنها ويستحقون نتائجها.

كم تمنت لو ظل معها دائماً مواطناً لعالمها هى فقط. أصبح لديهما طفلة ظهرت فيها معالم جمال الأم فزادت عالمهما اتساعاً وزادت الأم انعزالاً عن كل شيء سواها هى وأبيها.

ولكنه صار يبعد ويبعد فى تلك الأيام، إنه ممتلىء بالعالم خارجها.. هناك شيء كبير يحدث.. لم تستطع أن تسأله، لم تستطع أن تلوث لسانها بالحديث عن العالم، أن تجعله بينهما ليهدد عالمهما، سينتهى كل شيء وسيعود كما كان بالتأكيد. إنها لا تشعر بذلك فقط.. إنها مؤمنة به. ولكن إيمانها ذلك أخذ يهتز مع تفاقم همومه ومع شروده طوال الوقت.. ماذا يحدث؟

هى لا تريد أن تعرف ولكنها تريده أن ينتهى.

14

هاتفت جارة قديمة "نورا" لتهنئها بالمولودة التى سمعت كم هى جميلة، وتعتذر؛ لأنها تأخرت كثيراً فى التهنئة. تحدثا فى أمور تخص عائلتيهما وذكريات قديمة، وتطرق حديث الجارة إلى مدى سوء الوضع الراهن وتدهور الأحداث الأخيرة. خفق قلب نورا.

أضافت الجارة أنها سمعت أنه إذا تم تسوية الأمر سلمياً فيمكن تجنب الكارثة.

سألتها "نورا" بحذرٍ عما تقصده بالتحديد، فأجابتها بأنها تتكلم عما يحدث فى الجنوب وأضافت

- وهل هناك كارثة أكبر من ذلك؟

فحاولت "نورا" مجدداً استيضاح مقصدها، فهتفت بها الجارة بنفاد صبر:

- الحرب. ألا تقرئين الجرائد.. ألم يخبرك السيد الوزير بأن هناك تدخل ما أو خطوة ما لتهدئة الأمور؟

لم تفهم "نورا" لِمَ كانت لهجة الجارة مليئة بالكراهية للزوج المسئول. ولكنها تأكدت أن هناك شيئاً كبيراً بالفعل كما أحست ولكنها أنهت المكالمة وهى لاتزال لا تفهم طبيعة الأحداث. الجرائد.. إنها لم تفكر يوماً فى مجرد محاولة قراءتها، إنها بشعة ،لا شيء تفعله

سوى إفساد المزاج وتكدير الحياة الهادئة. ولكن الجرائد هناك على الطاولة بعد أن تصفحها الزوج بتجهم فتت قلبها الذى لم يعتد منه ذلك أبداً.ماذا يحدث؟

ذهبت إلى حيث الطاولة وتناولت إحدى الجرائد. فى أول صفحة كانت هناك صورة لجندى أسود يمسك بسلاح نارى وتحتها صورة أخرى لجنود ذوى لون معتاد لديها، وعناوين بخط عريض فى صفحات متتالية:

أشباح الحرب.. القوات المقاتلة تكمل مسيرة الانفصاليين..هل يستعد جيشنا لقتال جيشنا..اللعبة الخطرة تصل إلى نهايتها.. كيف سيخرجنا الرئيس من الورطة؟!

لم تفهم شيئاً، أخذت تقرأ كل مقالة كاملة، قرأت كثيراً ولازال هناك سوء فهم، أوأن هناك تفاصيل ضائعة، فهم يتحدثون مثلاً عن الجيش بصيغات مختلفة ومتناقضة، جيش هناك وجيش هنا وليس الأول منتمى إلى الآخر، وحرب حدثت وحرب قد تحدث.

حروب.. إنها كانت تعتقد أن عصر الحروب قد انتهى وأنه مجرد تاريخ قديم أو.. هى لاتدرى لماذا يحارب الجيش هناك ولماذا يستاء منه الجميع؟ وما دخل كل تلك الدول التى تتحدث بتصريحات متعجرفة وواثقة ومتمكنة وكأن الأمر يخصها تحديداً؟

ثم.. هل كانت حرب بحق كالتى يحكون عنها فى التاريخ؟

و..موتى.. هل هم يموتون؟

هناك مبالغة.. لابد أن هناك مبالغة، إنها لا تصدق بكل حال،حتى التاريخ لا تصدقه و لا تتخيل أهواله، هناك حاضر.. هناك أناس يسيرون فى الشوارع ويمسكون بمظلاقم فى الصيف فالشمس ساطعة فى بلادنا، والشتاء أيضاً قارس والمطر يتزلق على

أسطح المظلات، ثم هناك المتاجر وأناس يسعون بنشاط.

لماذا ذهبوا إلى هذا الجنوب ومعهم أسلحة؟ ولماذا تحدثت جارقما بكل تلك الكراهية؟!

لماذا يتهمون زوجها فما شأنه والحرب؟ إنه حتى ليس عسكرياً ولم يتحدث يوما عن الحروب.

إن أباها يكرهه وكم بكت لأجل ذلك، كيف يمكن أن يكره أحد رجلاً مثل زوجها؟ ثم تساءلت ثانية لماذا تتورط بلادنا فى مثل تلك الأمور؟ أمعنت النظر ثانية فى صورة الجندى الأسود..

إنه بائس ولكنه مخيف أيضاً. مَن مِن كل هؤلاء هو صاحب الحق؟ هناك أطراف كثيرة. وماهى المشكلة الأساسية التى نتج عنها كل هذا؟

ما فهمته أن الجميع أصابهم ضرر فلم لا يترك هؤلاء الجنود تلك الأراضى ويعودون، إن بلادنا جميلة.

كلما نظرت إلى صورة الجندى انقبض قلبها، فسلاحه مصوب ناحية قلبها، إنه مصوب إلى زوجها، والجندى بائس ونحيل وفاقد للصبر، وزوجها متورط. وسيقتلون أخاها حتماًإن ذهب إلى هناك

ليحارب باسم بلادها والبلاد الأخرى التى تعلن الحرب. كيف ستنتهى كل تلك الأشياء بسلام؟!

هذه المرة هى تواجه خوفاً أكبر منها بكثير. لماذا لا يخرج زوجها ويعلن للجميع أنه لا شأن له بشىء ويترك لهم كل شىء؟

إنه يستحق أن يحبه الجميع. ولكن ما يدريها أنه لا شأن له بشىء؟ من هو ذلك الوغد الذى سبب كل هذه الشرور؟ لماذا لايُصلح ما فعله؟ لماذا يعلن الجميع أنها نقطة اللاعودة؟ لماذا يلوح الجميع بالسلاح كحلٍ لا بديل له وإلى من سيُوجَّه وبأيدى من؟

يا إلهى.. انكفأت على المنضدة وهى تبكى، ظلت تبكى إلى أن وجَّهت وجهها إلى السماء

– أنا لا أعرف بم أدعوك؛ لأننى لا أفهم. ولكننى أستطيع أن أخبرك بما أريده. إنه قلبى كما تعلمه لا يحتمل.. فاجعل كل شىء قائماً كما هو، لا أريد سوى ذلك.

سمعت بكاء طفلتها، سترضعها لبناً مريراً.. لا شىء سوى ذلك.

لم قرأت؟ لم خرجت عن إطار تجاهلها للعالم لتدخل فى دوامة لعلها لن تعيدها أبداً إلى حياتها السابقة؟

ربما كانت هناك أشياء أخرى لا تعرفها تستطيع أن تضبط كل شىء وتعيده إلى مكانه الصحيح ليظل بيتها كما عهدته. لابد أن هناك مخرج.. هناك حل، كل مشكلة لها حل. ولكن لم ترتبط حياتها بأمور لا دخل لها فيها على الإطلاق؟

لم هى متورطة؟ لم هى خائفة؟

إنها بعيدة عن كل شيء، وستشرق الشمس بالغد كما تشرق كل يوم. هدأت قليلا ولكن قلبها عاد ليرتجّ، إن همومه أعمق مما تتصور، ولكنها تحسها.. هى كبيرة.. كبيرة بالفعل

والكابوس له قدم على الأرض.

لأول مرة يخفق قلبها خفقة كريهة عندما سمعت صوت الباب الذى فتحته أحب يد إليها فى العالم. لم تكن خفقات الحب، ولكنها خفقات الخوف. كريهة كطبول الحرب.

ولأول مرة لا تستطيع مواجهة عينيه، وتقشعر للقبلة الحزينة عديمة المعنى التى طبعها على خدها. جلسا إلى المائدة بلا كلمة. عندما آوى إلى فراشه سألته وهى تغلق النافذة وعيناها بعيدتان عن عينيه حتى لا يلحظ الجهد العنيف الذى بذلته فى إخراج الكلمات:

– متى ستعود للقضاء؟

كان واثقاً تماماً بأنها لا تسعى لمعرفة شيء عن أى شيء، وكان هذا أحد الأمور التى عمقت لديه إحساسه بها كواحة وسط أيامه المقفرة. كان سؤالاً بريئاً من مخلوق لا يشك بأنه الأكثر براءة على الأرض الملعونة. ولكنه لهذا السبب تحديداً كان صادماً لدرجة أن لسانه قد انعقد. أما هى فندمت على السؤال قبل أن تنتظر إجابة.

وفى تلك الليلة التصقت بقلبه لتسمع دبيبه ؛لتحصل على دقة واحدة هادئة تطمئنها.

لم يشعر بها وهى تحتضنه، أما هى فأحست أن صورة الجندى الأسود بينهما وعشيرته كاملة، والسلاح كان له فُوَّهتان، واحدة على صدر كل منهما.

15

وصلت أسماء الجنود القتلى فى أحداث مستعمرة الجنوب، فقط الذين تم التعرف على هوياتهم. وعرفت أم نجيب أخيراً أن ابنها كان على قيد الحياة عندما بلغها نبأ موته.

ولم تعد "نورا" تحتاج لفهم شيء، فالموت هو الكلمة الأخيرة.

فكما أرّقت حياتها صورة الجندى الأسود، أفسدتها للأبد دماء أخيها ثم دماء زوجها الذى لم يعرف أحد من هو قاتله، فالأسلحة كثيرة والأهداف كثيرة، والحرب دائرة ولا عقاب فى الحروب، فالجريمة مبررة قبل ارتكابها.

16

تزوجت "ناهد" بعد انتهاء دراستها، كانت الأمور تمضى بالطريقة المقرر لها أن تمضى بها. ثم ثلاثة أبناء ذكور مع بعض المعاناة المادية.

كانت المعاناة الأكبر مع الزوج الذى تبيّن له مع مرور الأيام مدى افتقاره للإحساس بالجمال داخل البيت، ولكن ربما كانت تلك الحاسة غير أساسية فى طريقة اختياره لزوجته.

لم تكن الزوجة تدَّخر جهداً فى سبيل الاحتفاظ بالزوج ولكنه

فهم تماماً أن السعادة ليست فى مقدار ما نفعله وإنما فى إحساسنا به.

وهل كان صراعه مع نفسه ومع زوجته فى ملاحقة السعادة مبرراً لانحرافات الجسد؟ وهل كانت أوكار العهر يوماًحلا لأمثاله؟

ولكن ما يلفت الانتباه هو ذهاب الزوجة إلى أبعد مدى ليس فى مجرد انتحال كل أساليب العهر فى حياقما الخاصة، وإنما أيضاً فى ملاحقته فى مثل تلك الأماكن، كان غريباً بعض الشيء مشهد امرأة تقتحم ملهى ليلى أو بيت سرى لتجر زوجها ربما من بين أحضان متعة لازال يلهث فى سبيلها. وكم تعرضت للضرب المبرح منه وكم ضربته فى الشارع وطلقا مرة أثناء تلك المعارك ولكنها لم تكن على استعداد أن تدعه يفعلها مرة أخرى.

كانت نزواته أكثر خطورة على الوضع المادى للأسرة. وقد أتى الحل المناسب وحده إليهم وسافر الزوج وبقيت الزوجة وحدها فى مواجهة عبء ثلاثة أبناء.

تحسنت كثيراً أحوال الأسرة وخاصة بعدما قام الأب الذى عاد بعد سنوات ببناء منزل كبير والعكوف على مشروع تجارته الجديدة. أصبحت مغامراته أكثر هدوءاً وسرية فالأمر أصبح يتعلق بسمعة بيت به فتية قاربوا سن الشباب.

ولم يعد هناك داعٍ لاهتمام الزوجة بهواجسها طالما أن الأمور تسير على ما يرام.

فقد فترت مشاعر الزوجة ولم تعد تهتم بأمر الرجل الذى يحيا معها بصفته زوجاً لا يجب أن يكون سوى لها وإنما بصفته مديراً للتجارة التى تمول البيت وليعبث بشرفه كما يحلو له. وبذلك صار البيت يضم خمسة رجال.

17

أدخل يوسف –الابن الأ ٍسط– الإبرة الطويلة الغليظة فى البطن الضخمة الممتلئة بالسائل. قام بسحب الإبرة المعدنية بعد ترك الغمد البلاستيكى، ورغم أنه كان مرتدياً لزوجين من القفازات إلا أنه أحس بأن شيئاً من ذلك السائل القذر تسرب إلى يده وملابسه، فلم يعِ عقله الذى شلته الكارثة أنه تسبب فى سقوط بعض قطرات على الأرض قبل أن يُلقِ الإبرة المعدنية فى الصندوق المخصص. انطلق بسرعة طائر يخلع البالطو الطبى وقفازاته ويقذفها فى طريقه وينهى صابونة كاملة وزجاجة مطهر على يديه.

لم تكن تلك المرة الأولى التى يخرج فيها الطبيب الشاب من حجرة المرضى متبوعاً بهمسات الممرضات وضحكاتهن وأحياناً بصراخهن، فقد صارت مواقفه تلك مصدر شهرته فضلاً عن وسامته التى اتفق الجميع بأنها تصلح للسينما.

كانت تصرفاته تلك موضوعاً لحديث مرح يتبادل فيه المتحدثون المواقف التى شاهدوها بأنفسهم. فمن تقول بأنه يوماً ما كان يدخل أنبوب التغذية فى أنف مريض شبه فاقد للوعى وتسبب رد فعل المريض فى تناثر قطرات من الرذاذ على وجهه فانطلقت من فمه صرخة وهو يجرى كالمجنون ليغيب وقتاً طويلاً ويعود بعده بوجه متقزز مستاء وقد بدا عليه مدى قسوته فى غسل رأسه وعنقه.

ومن يتحدث عن رفضه مجرد الاقتراب من مريض ينضح جسمه كله بالصديد ورائحة لا تطاق بينما كان من المفترض أن يقوم بفحص نبضه وضغطه حتى أن المريض حل المشكلة بنفسه ومات.

ولم يحتج أحد للتحدث عن مدى كراهيته لحجرات المرضى وأسرتهم ومقاعد الأطباء وكل شيء يمكن أن يمسه داخل هذا المكان، فقدكان هذا سلوكه الذى يعايشونه كل يوم.

18

تلقت الأم خطاباً ينبئها بوفاة عم الفتاة ابنة أختها "نورا"، حيث أقامت الفتاة منذ سنوات ببيت عمها بعد وفاة الأم، واليوم كان على الفتاة أن تقرر إما أن تحيا وحدها فى بيت أبويها وإما أن تنتقل إلى بيت خالتها ؛لأن زوجة العم المتوفى قد نفد صبرها.

كان الموقف حرج فابنة أختها شابة، وعموماً هى تعتقد أن البيت غير مناسب.

ولكن هل يمكنها أن تتركها تحيا وحدها فى مجتمع لا يمكنه أن يمرر أمر كهذا بسهولة. لم يكن هناك بد من الاستسلام للواقع واستقبلت الأم الفتاة. حسنها الفائق أثار ضيقاً لديها حاولت تبريره بأنه خوف علي الفتاة، ولكن داخلها كان ينغصها جمال حُرِمت منه وذاقت لأجل ذلك مرارة سنوات طوال. لقد أتت الفتاة لتثير داخلها ما حاولت دفنه.

كان استقبالاً فاتراً شعرت به الفتاة من أول لحظة وعرفت أن حياتها هنا ستكون غير مريحة بطريقة تتجاوز ما توقعت، فالأمر ليس مجرد بيت يضم ثلاثة شباب يعرفونها بالكاد من ذكريات طفولة بعيدة.

فالخالة كانت قاسية فى تجاهلها للفتاة وهى بعيدة والآن هى كذلك وهما فى نفس البيت.

لقد فكرت الفتاة فى الأمر أياماً ولكنها لم تجد حلاً آخر، إنها لن تستطيع أن تواجه مجتمعاً كهذا وحدها، وهذه السكنى المقلقة أهون كثيراً من وحدة فتاة مثلها.

أشارت الخالة إلى الحجرة التى خصصت لها وأخبرتها بموعدِ الغداء الذى لا تسمح لأحد بالتخلف عنه.

كانت جميلة متعبة للغاية حتى أنها حاولت الاسترخاء قليلاً بملابسها قبل أن يأتى موعد الغداء الذى يبدو أنه سيكون قيداً يومياً جديداً ولكن لا يجب إغضاب صاحبة البيت من اليوم الأول.

حقاً كانت نظراتها لها جافة وغير مرحبة ولكنها ليس لديها وقتاً للبكاء على سوء الحظ فهذا هو المتاح.

على الطاولة تلاقت جميع الوجوه وقدمت الأم الفتاة لأبناء خالتها وعرّفتها بهم فى كلمات مختصرة. لم تلحظ الفتاة وجه أحدهم فلم تكد تنظر إلى الجالسين وهى ترد على عبارات الترحيب الاعتيادية ولم تلحظ أيضاً أن أحداً من أبناء خالتها وجَّه نظره تماماً إليها فكان ذلك مريحاً لها بعض الشىء.

ولكن غير المريح كان هو وجه الأب الذى سلط نظره عليها طويلاً مع صمت الخالة الذى يوحى بانفجار قريب. انتهى وقت الغداء بعد أن خرج رد الخالة على سؤال لزوجها بما يشبه الصرخة. وعادت جميلة إلى حجرتها الجديدة.

فكّرت فى أن الوضع مقرف بين الخالة وزوجها والأبناء مسالمون حتى الأب يبدو طيباً ونظراته لم تكن بالسوء الذى تخيلته الخالة.

لقد كانت أكثر وداً وترحيباً من نظراتها.

وفى حجرة الأم فاجأت الزوج بقولها أنها ليست على استعداد لاحتمال هذا المشهد فعليه أن يُغادر البيت إذا ظل يحملق فى وجه فتاة لا يعلم أحد كم ستطول إقامتها بينهم.

رد عليها بأنها قد جُنَّت وأن الفتاة ابنته ولكن من النادر أن يرى المرء جمالاً كهذا أمامه.

وفى الحجرة القريبة منهما كانت الجميلة النائمة تصارع أحلامها القلقة.

19

فى اليوم التالى كانت "جميلة" فى طريقها إلى الجامعة. لم تعد طالبة بعد ولكنها لم تبعد عن مجال علم النبات. كانت على موعد مع المشرف الأول على بحثها.

اليوم الأربعاء وفى هذا اليوم من كل أسبوع يأتى فى تمام الساعة العاشرة، فى حين أنه يأتى يومياً فى الثامنة صباحاً. وصلت مبكرة قبل ميعاده بساعة تقريباً.

تفحصت مكتبه بعطف غامر حيث وجدت نظارة القراءة ملقاة على سطح المكتب. التقطتها، كان من الغريب جداً أن ينساها.

ارتدتها ثم نظرت إلى نفسها فى المرآة وهى تقلد طريقة أستاذها.

– لا تقلقى يا "جميلة"..لا شىء يدعو للقلق، فكل شىء ينتهى على أى حال.

خلعتها وظلت ممسكة بها وهى متوجهة إلى النافذة المطلة على الحديقة. لم تشعر بالوقت وهى غارقة فى أفكارها حتى سمعت الصوت العزيز لديها، أجمل صباح الخير تسمعها منذ أن أدركت الحياة من فم أستاذها. فهو صباح يخرج من قلب الشمس التى سطعت لتوها ليصاحب النسيم المار على الأرض الخضراء ليستقر بباقة زهور جُمعت فى لحظة تحية الأستاذ الصباحية.

اتخذ وضعه المعتاد على كرسيه ووضع حقيبته الصغيرة فوق مكتبه وبدأ يفتحها ويخرج ما بها.

- تغيّب دون سابق إخطار، إنها المرة الأولى.

- كنت مضطرة ولم أجد وقتاً.

لم تزد عن هذا الرد رغم أنها تعلم أنه يقصد التعرف على سبب تغيبها. أخذت تتابع رعشة يده التى تألفها عيناها أكثر من أى شيء.

كان الأستاذ يعانى من مرض يصيب الجهاز العصبى ويسبب حركة اليد اللاإرادية والتى تتضح أكثر فى حال السكون.

تأملت هيئته اليومية المعتادة والتى تمنح قلبها شيئاً من الراحة والسكون، الشعر الرمادى الذى قام بتمشيطه باتجاه عرضى لتغطية المنطقة الأمامية من الرأس، الجبهة العريضة المشرقة التى كثيراً ما تغطيها قطرات العرق حتى فى الشتاء، منديل القماش الذى يخرجه من جيبه ليمسح جبينه من حين لآخر، الأعين التى يمكن القول بأنها تحمل الكثير من المعانى التى تصل أحياناًللتضاد. التغضنات القليلة فى وجنتيه والتى تحفظ عددها وأشكالها دون أن تعرف شيئاً عن السنين التى كونتها.

- ماذا لديكِ؟

أخرجت بعض الأوراق وناولته إياها.

- تخيلى لم أعثر على نظارة القراءة بالأمس واضطررت لقضاء ليلة بدون قراءة.

– وماذا فعلت إذن؟

– استمعت إلى الموسيقى. لم أركز أفكارى هكذا فى الموسيقى وأنا أسمعها منذ زمن طويل.. ثم إن النظارة فى يدك ولا تناولينى إياها.

– آه..كانت على المكتب.

أخذ فى مراجعة بعض الأوراق وأكملت هى تأمله. تذكرت اليوم الأول الذى التقت به فيه بعد أن تقرر إشرافه علي بحثها. كانت المرة الأولى التى تتعامل فيها معه مباشرة بعد أن كانت مجرد مستمعة لمحاضراته القليلة بين الكثير من الطلاب.

أول شيء قاله لها:

– قبل كل شيء يجب أن تعرفى أن لكِ أباً بهذا المكان.

لم تتخيل أنها أخيراً تسمع تلك الكلمة التى ظلت ترجوها لسنوات بلا طائل، بعد أن وجدت أنه حتى رجل الثمانين يعاملها كامرأة يحذر فتنتها أو يقع فيها.

ولكنها ظلت حائرة تسائل نفسها هل قالها لكل تلاميذه. من حق الإنسان أن يغار على أب وجده بعد تلك السنين وخاصة إذا كان قد نشأ بلا أب.

رفع رأسه عن الورق وخلع نظارة القراءة وهو ينظر إلى عينيها مباشرة بعينين خضراوين رائقتين

– اجتزنا الجزء الأكبر من الكتابة.

صمت قليلاً خافضاً عينيه إلى الأوراق، ثم عاد ينظر إليها.

–ستكملين الطريق بعد الحصول على الدرجة.

ابتسمت

– أنت تعلم تماماً.

مرت فترة من الصمت. كانت تريد أن تقول شيئاً..كل يوم تقابل فيه الأستاذ تتمنى بل تقرر أن تتحدث، فقط تتحدث كما يتحدث الأبناء مع آبائهم أو الأصدقاء مع بعضهم البعض. وتقول كل شيء يدور بخاطرها، تحكى يومياها ..مآزقها.

أى شيء هذا الذى يمسك لساها ويجعل عزمها غير منطقى؟

إنه حتى الآن لا يعرف عنها شيئاً أكثر من تأكده بعد أن قرأ اسمها كاملاً من مدى صلتها بالوزير السابق. ولم يجرؤ على تكرار التحدث بهذا الشأن بعدما لاحظ عزوفها التام عن الخوض فيه. هو أيضاًلم يكن مهتماًبالأمر فالأب الراحل أصبح تاريخاً عفا عليه الزمن.

لا يعرف مع من تحيا أو كيف تمضى حياها، هى أيضاً لا تعلم عن حياته شيئاً، بيته، أسرته. هى لا تريد أن تعرف سواه ولا تطيق أن تعرف أن له أبناء سواها. لم يعرف أحدهما أن كلا منهما يحتاج للتحدث، أو أحسا ولم يملكا شيئاً حيال ذلك.

الواقع غير ملائم لأحلامنا، وهو ليس أباها بقانون الطبيعة، والإنسان ليس له سوى أب واحد إن مات فلا بديل.

ولكن هذا ليس كل شيء. إن عالِم النبات الذى تجاوز الستين ذا الخطوات الصغيرة واليد المرتعشة هو رجل وإنسان قبل كل شيء. هل بمقدوره ألا يقع فى غرام امرأة مثل جميلة! هل تصمد الأحلام القديمة أمام أميرتها التى جاءت بعد عشرات السنين فى زمن ليس زمنه؟ لم يرها يوماً مجرد فتاة، إنها أنثى يافعة اكتمل نضجها عقلاًوجسداً، وتملك الروح التائهة عنه التى دعم الإيمان بها شبابه وعجل فقد اليقين بوجودها هرمه.

الأمر بالنسبة له لم يكن مجرد رجل وامرأة أو جسد وجسد فقط، وإنما كان أبعد كثيراً. فلم يعرف هل يشكر الأيام بعد أن رآها وعرفها أم يلعنها؛ لأن الحلم أتى والحالم فى طريقه إلى الذهاب.

هو يعلم علم اليقين أنه لا أحد يستحقها سواه ولكن كفه العطشى المرتعشة لن تستطيع أن تغترف من الماء.

لقد كان حريصاً على ألا يذكرها مباشرة فى عقله، واكتفى بسيطرتها الغامضة غير الواضحة على خياله، لقد كانت فى الكتب وفى الموسيقى وفى السماء وتسبح مع الهواء وتتوهج مع نيران المدفأة والشموع. إنها فوران الأنفاس التى كانت قد شاخت،وهى الروح التى تُنفخ فى دمى الصلصال لتصبح إنساناً.

فى ليلة كان يقرأ رواية لكاتب قالت له يوماً عنه أنه كان شاباً وسيظل شاباً للأبد. كان قد مات وهو فى الثالثة والستين ولكنه حتى آخر كتاباته لم يتجاوز روح الشباب.

كان يقرأ فى ضوء خافت، ولم تكن تلك هى المرة الأولى منذ أن أخبرته بأنها كانت تقرأ فى ضوء خافت فى طفولتها حيث تصل متعة القراءة إلى أبعد مدى إلا أنها دفعت الثمن من نظرها.

أثارته للغاية فكرة تمسا' الطفلة بالمتعة فى عنفوانها، فقط عندما تجاوز الحدود.

وضع حاجزاً عند الصفحة التى توقف عندها فقد حان موعد الدواء، تذكر وهو سابح فى سحر أضوائها الخافتة حديث الطبيب عن الالتزام بالصبر وعدم تعجل النتائج فدواؤه يحتاج إلى سنوات ليستطيع أن يهبه نتيجة معقولة. انسابت من فمه ضحكة صافية كان يحتاج إليها من فترة.

وهكذا حكم عليه الحلم الذى استيقظ متأخراً أن يحيا حياة مزدوجة، أمامها وبعيداً عنها. فكان الدور الذى يجب أن يؤديه أمامها هو دور المعلم وأحياناً الأب الرشيد.

أما الوجه الآخر فهو العاشق الذى يحرقه هواه لينير ليالى شيخوخته. لم يتخيل يوماً أن تأتى طفلة لتمنحه متعة الحياة الخاصة والعالم السرى.

لقد تغير وجهه كثيراً منذ أن عرفها، ولم تعرف هى ذلك ولم تعرف بأنه أحس بأهمية أن يرى المرء نفسه.

ولكنه لم يسلم من نوبات شرسة تجتاحه أحياناً من يأس وحنق ليصرخ بكل طاقته –لم تكون الأمور هكذا دائما؟

وكان عليه أن يكتم صراخه وتظل نوباته جزءا من حياته الخفية.

فهو يرى أنه من الأفضل معالجة الأسئلة التى لا نجد لها إجابة على الإطلاق بالصمت.

ظل ملتزماً بعهده ألا يحاول أن يحلم بها على الإطلاق ليستطيع أن يراها فى الصباح ويواصل أداء دور المعلم بنجاح.

وكم كان يعانى فى محاولات ضبط انفعالاته وردود أفعاله ونظراته، فالاتزان.. والاتساق مع دور المعلم فقط كان هاجسه دائماً وهو أمامها. وكم نتج عن ذلك أفعال وردود فعل مغالية فى هذا الاتجاه لتغادر الفتاة مكتبه مرات وهى حزينة تخنقها دموع خيبة الأمل.

ليس بإمكان إنسان أن يتجاوز ضعفه ليلعب لعبة الإنسان المزدوج الخطرة، فيُجبَر على أن يقول للسعادة المتجسدة الجالسة أمامه - شكراً.. لا أريد.

وإن جانباً من هذا كله لم يكن خافياً على الفتاة، وإن كانت لا تستطيع استيعاب مدى خطورة الأمر، ولكنها فهمت أن مشاعر غامضة من نوع آخر تسللت إلى المعلم.

ولم يكن منها إلا أن أشفقت عليه وعلى نفسها كضائعين فى عالم غريب. تماماً كما تعتقد بأن على كل إنسان أن يشفق على الآخر وعلى نفسه. وبقى فى نفسها شيء واحد أنها على كل حال تحبه حباً منزهاً عن التصنيف.. وهذا هو كل شيء.

وظل الحال كما هو عليه فهو كأب أو كصديق وهى كابنة أو كتلميذة أو كصديقة صغيرة.

وكأى شىء يبدو لنا فى الحياة.. إنه شبِه.. وإنه مِثل.. وإنه يكاد أن يكون.

20

عندما وصلت "جميلة" إلى البيت تنفست الصعداء؛ لأنها أدركت موعد الغداء بالكاد. صعدت إلى حجرتها وغسلت وجهها ثم اتخذت مقعدها وبدأت فى تناول الطعام. لم تستطع تناول شيء سوى شرائح البطاطس المقلية، إلا أن زوج الخالة ذا الوجه البشوش نبهها إلى أن هذا ليس غداءً وأنها يجب أن تأكل كما يأكل من حولها.

ابتسمت لابتسامته الحنون وحاولت مجاملته باتباع نصيحته.

بعد دقائق قطع صوته الصمت ثانيةً

– هل لا زلتِ تدرسين؟

– لقد أنهيت دراستى وأباشر دراساتى التكميلية.

– وماهى طبيعة دراستك؟

– علم النبات.

– جميل..من الجيد أن نكون مختلفين..أليس كذلك؟!

وجَّه سؤاله لأبنائه فلم يجبه أحد. كانت تتمنى أن تترك الطعام وتصعد إلى غرفتها ولكنها لم تشأ أن تثير أدنى اضطراب فى نظام البيت.

لم تعتد يوماً مثل تلك الطقوس العائلية، وأرادت أيضاً أن ترفع عينيها عن المائدة ولكنها لم ترد أن تظهر بصورة المتفحص لوجوه

الحاضرين. رفعتها أخيراً بعد أن كادت تختنق فوجدت أمامها وجه الخالة الصارم المتأفف وهى تمضغ طعامها بغيرحماس. خفضت بصرها ثم رفعته مرة أخرى فدار رغماً عنها فى وجوه الجالسين، لم تكن تعرف وجوههم ولكنها ميَّزت الطبيب.

وعندما لمحت ابن الخالة الجالس بالقرب منها حبست شهقة قوية فى صدرها، لقد كانت هناك آثار حروق شديدة بيديه وبوجهه أيضاً. ولعل الخالة لاحظت ذلك حين فاجأتها بسؤال تبدو لهجته كالتهديد مصحوباً بنظرةٍ حادةٍ:

– هل صحتك على ما يرام؟

فهمت أن وجهها قد شحب بعد ما رأته. وفهمت أيضاً ما أرادت المرأة أن تبلغها إيّاه، وكأنها تنذرها بألا تتدخل فى شىء إذا أرادت أن تحيا بهذا المكان. وهنا لم تستطع أعصاب جميلة الاحتمال فغادرت المائدة بعد أن اعتذرت بإصابتها بصداع وأنها تحتاج للراحة وقد كان ذلك حقيقياً، ولكن الأكثر واقعية أنها لم تعد تحتمل وجه الخالة.

تمددت على فراشها وهى لا تشعر بشىء ولا يدور برأسها أى شىء، كل ذلك مُغلّف بمسحة من القرف الشديد. ونامت لبعض الوقت لتحلم بكابوس مزعج ترى فيه نفسها جالسة على المائدة مرة أخرى. عندما استيقظت صنعت قهوة بحجرتها وتناولت أوراقها وحاولت أن تفعل أى شىء. إلا أن سؤالاً ارتسم على الأوراق

–لماذا تضطرنا الحياة لارتكاب حماقات؟

إنها اليوم فى بيت غريب جديد ليتفاجأ أصحاب البيت بمتطفل يشاركهم حياتهم وغداءهم.

ولكن هناك من تضطرهم الحياة لما هو أقسى من ذلك كثيراً.

لقد تعلمت ألا تحزن؛ لأنها اكتشفت أن هناك من يستحق الحزن أكثر منها، نعم هى تعتقد أنها لا تستحق الحزن. إنها رغم كل شيء لديها مالاً تركه لها الأب وبيتاً لا عيب به سوى الوحدة.

كانت عينا أمها تحملان من الحزن ما يجعل "جميلة" تصرخ بالأم
– لدينا ما يكفينا.. نحن فى حال جيدة فكُفّى عن الحزن ولو ليوم.

وحتى عندما ماتت الأم تجلدت جميلة أمام عاصفة الموت المدمرة، ولم يكن هناك من يتوقع أن تبدو الفتاة الرقيقة التى تعبد الأم بكل رباطة الجأش تلك.

منذ متى صارت هكذا؟ لاتعلم على وجه التحديد ولكنها يوماً ما أدركت أن الحياة جادة فى بؤسها وأنه ليس مجرد لهو مسلٍّ تمتعها القراءة عنه فى الكتب.

يومٌ ما عرفت أن العمل ليس مجرد ملء فراغ الوقت، وأن استمرار الجسد فى الحياة متوقف على ناتج هذا العمل، كأن يبيع الإنسان قوّته وعمره فى مقابل حياته.. مجرد وجوده.

والإنسان الذى لا يملك مالها ورفاهيتها لا تمزح الحياة فى تهديدها له بالانسحاب. فهو من الوارد جداً أن يموت جوعاً إن لم يجد عملاً يمنحه ولو فتات تحفظ حياته.

ومن الممكن أن تكون كل الأشياء موجودة حوله ولكنه يحتاج لامتلاكها قبل أن يستعين بها فى إنقاذ نفسه ومن يحب من الموت.

ورغم أن هذا هو قانون ثابت وأزلى إلا أنها لم تكن على معرفة به وعندما عرفته لم تتخيل أنه حقيقى وقاطع إلى هذه الدرجة.

لقد كانت مجرد طفلة وهى تتابع للمرة الأولى حركة عمال البناء ووجوههم المتعبة وعرقهم الغزير تحت شمس الصيف التى تكاد تصهر رؤوسهم، ولم تتخيل كيف يثابر الحمَّال فى عمل يكاد يكون مستحيلاً فى نظرها، فهو يغامر بحمل أثقال لا يُقدِّر تماماً مدى احتماله لها. ولم تعرف وهى فى أول خطواتها فى عالم المراهقة إن كان هؤلاء العمال الذين لا يتوقفون عن العمل طوال النهار يجدون وقتاً للحب؟

ومتى يمكنهم وسط هذا الغبار والعرق والجسد المكدود أن يتذوقوا جمال الشِّعر والأدب؟ وماهو موقع عالم الخيال فى حياتهم التى يقضون قسماً كبيراً منها فى قسوة وجفاف العمل البدنى؟

إنها تذكر تماماً ذلك الحادث الذى جعلها ترى غضباً متراكماً يُعلن عن نفسه فجأة.

لقد كان معلم اللغة يقرأ للتلاميذ قصيدة تبدأ بافتتاحية يتوجه فيها الشاعر بلوم الذين لا يكفون عن الشكوى من ضيق سبل الحياة وعدم امتلاكهم لأى شيء. فهم فى رأيه لا يدركون أن الإنسان عندما يذوب فى الطبيعة من حوله تصير ملكه من السماء إلى الأرض.

لم تستطع أن تكبح اندفاعها فى مقاطعته بجملة مفادها أنهم إن استطاعوا أن يسدوا جوعهم منها فهى ملكهم. جعلته المفاجأة ينظر إليها بدهشة، ثم تحولت الدهشة فى عينى المعلم إلى ابتسامة ظفر، هاهم أحد الماديين المقززين ذوى الذوق الفاسد الذين لا يفهمون خيال

الشعراء. كان رده ابتسامة جعلت الوجه المحبوب لمعلمها مقلوباً لا تستطيع معه سوى أن تخجل من نفسها ومن وضاعة أفكارها. أفكارها التى تحوّلت فجأة من الرومانسية المحلقة إلى الواقعية الفجة ؛وربما قام بربط هذا بانتسابها إلى فترة قاسية وموحشة فى تاريخ بلادهم لمجرد اسم تحمله. ولكنها اليوم ليست نادمة على ما قالته وأظهرها أمام زملائها فى صورة متوحشة. إن الخطأ ليس خطأها، إنه خطأ القوانين الأزلية.

لقد حاول كثيرون أن يثبتوا أن الأرض تكفينا وأن القوانين يمكن صياغتها بما يناسبنا جميعاً،ولكن ماذا حدث؟ لا زالت الغصة فى حلوقنا مع كل لقمة سهلة يتعذب ويموت آخرون فى سبيلها.

العالم مقرف حتى فى متعته. الحب والجمال آية الحياة! إنها أحياناً تشعر بحزام من النار يحيط صدرها الجميل ويحيط رأسها، حتى العذاب لا يفعل شيئاً ولا الصدقات. هذا هو الموضوع، مهما ذهب العقل هنا أو هناك. إنها حياة البشر. كيف نحيا؟

قشرة ضعيفة مصنوعة من الأوهام نقف فوقها، تتألم روحنا السجينة التى لا تجد الحب بينما الجحيم تحت أقدامنا يسحق من لا يحالفهم الحظ.

لابد أن الأمر سواء فى النهاية مادمنا جميعا نموت. ولكن لم لا نموت جميعاً فى سلام؟

لا يجب أن ينطق أحد بكلمة العدل فهو حتى لو عمَّ القشرة فإن الجحيم لا زال يغلى أسفلنا. إنها لم تفعل شيئاً من أجل ذلك سوى أن

تحيا كفأرة تمضغ قطعة الخبز التى بيدها برضا بينما تنظر إلى باقى الفئران وهم ينسحقون تحت أقدام البشر. إنهاتعترف أنها فأرة، وهذه هى شجاعتها الوحيدة.. الاعتراف.

لقد قرأت عن حرب الجنوب، كان ذلك فى عهد الفتوحات قبل أن يتعهد القائد بعد تصفية الأمر بأنه لن يكون هناك جهد واحد يُبذل سوى داخل الحدود.

ماذا كان سيحدث للعالم لو ظل الإقليم الجنوبى منفصلاً؟!

لقد ترك الدولة عندما عجزت عن تحقيق الهدف الذى يرمز إليه هذا الكيان..بل الذى قام من أجله. إنه الحفاظ على حياة الإنسان، تأمين حاجات الإنسان البيولوجية. لقد حاولوا تحقيقه بأنفسهم؛ ولذا استحقوا أن يُسحقوا بأيدى الدولة نفسها.

ماذا يمكنها أن تكون تلك الحياة التى تضطر الإنسان أن يحمل سلاحاً لكى يعيش؟

وذلك لأن هناك من يحملون السلاح لأسباب غير هذه. لم يكن ألمها ألماً واحداً، فالحياة موجعة حتى لو تغلبنا على مشاكلنا الخاصة.

وإنها ضيقة إلى حد أننا فى أحسن الأحوال نكرر نفس الكلام.

21

استقلت "جميلة" سيارة الأجرة لتصل إلى الجامعة بعد أن رفضت العرض الطيب من زوج الخالة بمرافقتها بسيارته الخاصة معتذرة بأنها لا تريد إزعاج أحدهم.

لم ترتح لمظهر السائق كما أنه سلك طريقاً مختلفاً تلك المرة. بلغ توترها مداه، لم ترد إظهار انزعاجها ولكن الطريق كان طويلاً،صاحت به – أى طريق هذا؟!

أجابها بأن هناك أعمالًا تجرى فى أحد الشوارع بالطريق الآخر. ولكنه أضاف بعد أن لاحظ خوفها أنه إذا كان المرء لا يثق بالسائق فعليه ألا يكمل معه الطريق. ولكنها أكملت.

كان المشرف فى مكتبه كالعادة منكفئاً على الأوراق أو متحدثاًإلى أحد الزملاء، بينما تواصل عيناه انتظارها. كانت تلاحظ أنه فى أغلب الأحيان يكون مطرقاً أو غير منتبه عند قدومها، دائماً يتأخر فى الالتفات إليها، لم يستقبلها مرة بوجه مشرق أو حتى وجه عادى ولكنه وجه ناء متجاف. وأحياناً يتأملها سريعاً فى صمت أو يرد السلام فى عجلة توحى بالانهماك الشديد فيما أمامه. كانت تحاول أن تتجاهل تجاهله الصباحى لها فى حال وصولها بعده، بينما يكون الأمر مختلفاً تماما إذا كان الوضع معكوساً.

فتصبح تحيته أكثر حماس وود إذا استقبلته هى فى الصباح. أشياء صغيرة ولكنها تعكر صفو مزاجها فى بداية اليوم الذى تأمل أن تنسى فيه حتى ذاتها. ولكنها تغفر لأستاذها كل شىء وتساعده بمرحها المعتاد على تخطى الوجوم الصباحى الذى لم تستطع فهمه على الإطلاق.

ويبدأ مزاجه المعتدل فى الظهور حتى أنه فى ذلك اليوم حكى لها ملخصاً لفيلم رآه بالأمس. لم تره يتحدث مع أحد يوماً بالطريقة التى يتحدث بها إليها، ولم تفهم عينيه اللتين لا تظهران سوى لها. إنهما عينان خاصتان بها، وتمنت أن تجد في عالمهما كفايتها. ولكن شيئاً لم يكفه منها ،لا ضحكاتها ولا مزاحها ولا حنان عينيها، كان يتمناها إلى أبعدَ حدٍ.

إن وجومه وتجاهله لها فى أول اليوم ليس سوى تعبيرٍ منفلتٍ عن دهشته من مدى جمال أمله المستحيل الذى يطل عليه مع الصباح. إنها تزداد جمالاً كل يوم وتزداد أناقة وبريقاً ونضجاًوأنوثة.

فليرحمه الله من تلك المرأة!

بالأمس تصفح ألبوم صوره القديمة ورأى شبابه، كم كان وسيماً ومليئاً بالحياة، فكر فى نفسه لو كان الماثل أمامها هو ذلك الشاب، وأخذ يتخيل مجرى الأمور المفترضة مخالفاًبذلك عهده بألا يسمح لنفسه بتخيلها، مما زاد عذابه فى ذلك اليوم.

وجد قلبه يدق مع الساعة التى توجب عليه فراقها، لقد أحسَّ اليوم أمامها بالفعل أنه ذلك الشاب الذى رآه فى ذكرياته بالأمس، ولو أنها مضت فسيعود كل شىء كما كان.

فوجئت به يثير موضوعاً للحديث كلما انقطع حديثهما، كم كانت سعيدة ولكنها كانت قد تعودت ألا تطمئن لتقلباته.

فى ذلك اليوم رأت فى وجهه حماسة وسعادة لم ترهما من قبل، وبعينيه كان قد احتواها تماماً.لم تكد تصدق ما تراه فطالما كانت ترجو أن تتجاوز الحدود الضيقة التى حددها الأستاذ لعلاقتهما. فى لحظة أحسّ وكأنه ضمها إلى صدره بحرارة تصهرها لتكون قريبة منه إلى حد الامتزاج، وهنا رأت فى عينيه إشعاعاً غريبا عليها أصابها بقلق مبهم. لقد صار الأستاذ تائهاً تماماً حتى أنها لم تكد تعرفه، رأت فيه هيئة وشخصاًلم تعرفهما من قبل، وتأخر الوقت ونظرت فى الساعة ولأول مرة ترى فى عينيه بوضوح كلمة لا تمضى، وفى نفس اللحظة لطم أذنيها صوته الآمر يأمرها بأن تنصرف.

لم يكن يتخيل مدى حماقة ماوصل إليه. وكم كانت ليلة رهيبة لم يرحم فيها نفسه.

لقد تجاوز كل الحدود وأظهر ما لا يليق، ولا عذر له فى أنه فقد إرادته تماماً ؛لأنه ليس مسموحاً لرجل فى مثل سنه أن يفقد إرادته تحت أى ظرف. وخاصة أمام فتاة من المفترض أنها تنتظر أن ترى فيه صورة المعلم الأب وليس العاشق العجوز.

رأى أنه أفسد كل شيء فى لحظات انفعال خرقاء، والآن كان عليه أن يسأل نفسه كيف سيواجهها؟ وأى وجه سيريها بعد أن سقطت الوجوه المستعارة؟

إنه المأزق الأقوى ولكنه ليس الأوحد. كم من مرة بدت له استحالة التمادى مقرراً التوقف وإعلان الانسحاب من إشرافه على بحثها. وكم بدت له استحالة حتى الانسحاب، فلم يستطع وضعها هى وعمل شهور وسنوات متواصلة فى مأزق.

لم يستطع أن يقدم لها إساءة بهذا الحجم لينقذ نفسه من ضعفها. إنها فى الحقيقة مشكلته هو ولا يد لها فيها.

أما ما ظهر منه اليوم فلا يعتقد أن هناك ما يمكن أن يمحو أثره.

مضى وقت طويل وهو ممسك جبهته بكفه،كان يعلم أن الأخطاء قد تضطره إلى ارتكاب أخطاء أكبر منها لمجرد تشويهها وليس إصلاحها.

كان متعباً للغاية ولكنه أراد أن يُغادر البيت، ارتدى ملابسه واتجه إلى مقهاه المعتاد، فكم من أحزان حملها معه إلى ذلك المكان.

حيَّاه النادل الذى كان يعرفه جيداً وذهب ليحضر قهوته الخالية من السكر. شعر بأن هذا أفضل كثيراً من المكوث بالبيت.

لم يعرف ماذا يجب عليه أن يشعر تجاه نفسه بالرثاء أم بالخجل؟

وأجابت مرارة القهوة على السؤال وصدى الأغنية التى ترددت فى المكان. ماذا ينتظر منها؟!

لقد سرقته من شيخوخته، من العمر والدموع، وتركته وحيداً أمام عينيها. فى البداية اختطفه بريقهما الماسى بدافع الفضول، والآن عذاب بلا نهاية. لو يستطيع أن يتخلص من خيالها المسيطر على

حياته. أوأن يتحرر ليعود ويرى حياته كما كان يراها سابقاً..لاشيء. لقد كانت تمزح حقاً عندما قالت ذات مرة أنهما شابين ويستطيعا مواصلة العمل لأيام، كان ذلك فى سياق موقف لايذكره؛ لأن قلبه دق بعنف. كانت تلك الكلمة -ولو مزحة- منها هى أمراً آخرًا، لقد عبثت الكلمة به كطفل طائش فاقد للعقل. أماهى فلم تفهم وجهه الذى بُهت فجأة عند سماع الكلمة، ولسانه الذى انحبس ليطول صمته حتى يستطيع ابتلاع الكلمة. إنها لا تفهم ماذا يمكن أن تفعل به كلمة واحدة منها تمس مشاعره الملتهبة. إنها تذهب وتجيء به، ترفعه إلى السماء وتطرحه بالأرض.

لم تستهوه امرأة ما حتى فى شبابه، تمنى ذلك ولكنه لم يحدث.

وجاءت هى ليعرف الحب لأول مرة بحياته، معها هى..هى فقط. خجل كثيراً من مشاعره، ولكنها كانت تفتح له قلبها وتحاول أن تذيب الحواجز بينهما، فهى تحتاج لأب وهو يحتاج؛ لأن يحتل مكاناًبقلبها.. أى مكان. تعذب كثيراً وهو يسأل نفسه هل تحوّل العالِم الذى لا يشك أحد باستقامته إلى رجل مخادع ذى وجهين لا يحترِم شعره الفضى وخطوط السنين فى وجهه؟ ولكن نقاء ودها وسحر عينيها المتسامحتين إلى أبعد الحدود أنسياه السؤال. فهو يحتاج إليها أكثر مما تحتاج هى إليه، إنها لا تعلم ماذا يمثل حب امرأة مثلها لرجل يصارع رياح طريق النهاية العاتية بجسد وروح لا يقويان على مغالبتها، فتظهر لعينيه شمس الربيع فجأة. إنها اليد الأخيرة التى يتشبث بها ليبقى على قيد الحياة.

أما هى فشبابها يؤنسها وآمالها وجمالها. كل منهما يحتاج للآخر بصورة ما، وهو لا يطمع سوى فى أن تظل ملء عينيه وملء روحه. فهو لا يغمض عينيه سوى على همس روحها المحيطة بكيانه ولا

يفتحهما سوى على نورها المبهر. ليس ذلك كثيراً فيما يظن، فلم يحلم بأكثر من ذلك.

الوقت تأخر ولكن الموسيقى لازالت تملأ الهواء وتراقص أركان المقهى ، ولازال العاشقان الجالسان قريباً منه غير راغبين فى إنهاء الليلة والعودة من حيث أتيا. ولازال الفتى الجميل الذى يجلس بعيداً يتأمل وحدته، لقد لاحظه منذ أتى وللوهلة الأولى ذكّره بنفسه.

كان يشبهه كثيراً، أو يشبه شبابه تحديداً.كم يناسبها! لو أنها كانت تجلس أمام الفتى بدلاً من أن يجلس هكذا ليعدّ أصابعه.

كيف كان سيرى الحياة وقتها؟ وهل بمقدوره أن يعرف قدرها الحقيقى؟ هل سيراها امرأة جميلة وحسب؟ إنه يخشى عليها أن تبخسها الحياة حقها، يخشى على القلب الذى لم يُخلق إلا ليكون سعيداً أن تمتد إليه الأظافر.

"لو أن هذا الفتى يراها كما أراها فإنها لن ترانى كما تراه".

تلك هى الحياة وهو ليس ساخطاً، فكل منا يزهر فى أوانه ليذبل فى أوان غيره، أجيال لا تنتهى وأحلام لا تنتهى رغم أن الجميع ينتهو ن.

وأمام جموح شبابها لا يملك هو سوى حبه وصبره يخفيهما حتى عن نفسه. فالشباب يملكون الكثير من الآمال بينما يملك الشيوخ أمثاله الكثير من الصبر، حتى لو أحبوا بجنون.

التفت إلى حركة يده التى لا تقف، وضع يديه بجيوبه ومضى حتى لا يتأخر عن ميعاد دوائه وميعاد نومه.

22

رغم الحيرة التى توقعها فيها تناقضات دكتور بهجت، إلا أن مزاج "جميلة" كان مرتفعاً، حتى أنها كانت تبتسم وهى تجلس فى مواجهة خالتها على المائدة .لاحظت أن الأسرة كانت مكتملة العدد مع تواجد ابن الخالة الطبيب والذى يتغيب عن المائدة نصف عدد أيام الأسبوع لظروف تتعلق بطبيعة عمله. عيناه واضحتان تحت حاجبيه الكثيفين وذلك عندما انتبهت للمرة الأولى إلى القلق الذى يزيد عمق لونهما البُنى، كم بدا قلقه موغراً لصدر الناظر إليه. لم تنم جيداً ولكن عقلها كان يفكر بوضوح فكان مؤهلاً للقراءة.

كان الكتاب الذى اختارته يتضمن مقالات تم تجميعها لكاتب محلى شهير كتب القسم الأول منها فى أعقاب حرب الجنوب.

اختارت مقالة بشكلٍ عشوائى وبدأت فى قراءتها. فى هذه المقالة رأى الكاتب أن الإنسانَ أحرز نصره الأكبر عندما استطاع رسم حدود للأرض التى ينتفع بها وإعطائها صفة الشرعية باعتراف العالم أجمع به حيث يمارس نفوذه ويواصل الانتفاع بها دون تدخل. وهنا لابد أن تكون السيادة للحياة العادية والتى تسيِّرها رغبة الإنسان فى البقاء. استطعنا أن نقسم الأرض بعد قرون من القتل.

ولكن دائماً هناك من لا يدعنا نفخر بإنجازنا؛ لأن له رأى آخر فى طريقة التقسيم ويرى أنه طالما أن القتل ممكناً فبوسعه إعادة توزيع خارطة الموارد؛ لأنها ليست عادلة بمقياس الكفاءة.

ويتمنى الكاتب للجميع أن يطوروا أدوات القتل كما شاءوا حتى يتمكنوا أخيراً من السير على أربع.

إنسان وحيد على أرض جديدة ترعى وجوده وتُبقى عليه، واستطاع أن يتكاثر، لقد أصبحوا بشرا كثيرين؛ لذا كان مقدراً عليهم الحرب للأبد. إنهم يحصلون على الأرض بإزاحة الآخرين بطريقة سهلة وممكنة جداً؛ لأنهم إذا طعنوهم ببلطة أو بحربة فإنهم يموتون. هناك سائل أحمر بأجسادهم إذا تمكنوا من عصره منها صارت أجسادهم والأرض سواء، وبذلك أصبحت هناك طريقة مهمة جداً لتسوية الأمور.

وكانت تحتاج إلى مزيد من الدراسة والتطوير فى إطار عبقرية هذا الكائن فى استكشاف الكون واستغلاله. كل طاقات الكون يمكنها أن تكون سلاحاً وكل تضاريسها ساحة للقتال. كان نابغاًهذا الكائن، استطاع أن يوطد أسلوبه ويفرضه واقعاً.. فما هو بالإمكان هو واقع؛ لذلك يستطيع أن يعلن بكل وضوح وثقة بأنه سيقتل. وإن ذلك قد يتبعه أن يأخذ و يستولى ولكنه معنى ضمنى. وحقيقةً فإن فقد التوازن فى توزيع الموارد يزداد مع الوقت؛ ولذلك فمن المنطقى جداً أن يعاد توزيعها على أساس واحد دائماً وخالد وهو الكفاءة. ثم إن الأرض لمن يقدر عليها،ىوالحدود تتراقص، إنها اختراع الإنسان وهو يقدر على زحزحتها بفعل القوة وبقانون الأمر الواقع.

الإنجاز الآخر وهو هام للغاية. فبعد أن استطاع الإنسان استئناس الحيوان وتربيته ثم سوقه إلى المذابح أو استخدام قوته فى أعمال لا يقدر عليها وذلك بعد أن أمَّن له غذاءه وتغلب على وحشيته.

استطاع أيضاً ذلك العبقرى استئناس الإنسان نفسه مالكاً قوّته وعقله، إنه إنجاز عظيم فقد تنامت أمواله وأعماله وتطورت قدراته إلى حد مذهل. ولكن العيب الوحيد فى ذلك الأمر أنه لا يتمكن من تأمين حياة الإنسان المُستأنس.

ومن كل هذا يمكن القول بأن عجلة الحرب لم تتوقف ولن تتوقف.

فالإنسان لازال رغم كل شيء يموت عندما نعصر من جسده السائل الأحمر بآلة حادة، أو بتصويب قذائف يمكن تحديد أهدافها بتقنية عالية جداً.

تنهدت "جميلة".. فأحداث الحروب الطازجة تصيب العقول بالخلل ما دامت مصرّة على عدم التصديق والإقرار بالواقع.

إن "جميلة" لا تحب الغضب ولا تحب الشكوى ولا تحب الحياة. إنها ليست حياتنا.. ليست حياة الإنسان الفرد.

23

شعر دكتور "بهجت" بأنه لا يمكنه الذهاب إلى عمله فى ذلك اليوم، ليس لأنه متعب فقط ولكنه أقرَّ أيضاً بأنه لا يستطيع مواجهتها. للمرة الأولى تستطيع عاطفة ما اعتراض طريق روتينه اليومى. رغم أنه لا يريد إثارة التساؤلات فى نفسها وأنه كان ينبغى أن يذهب وأن يكون طبيعياً جداً إلا أن ضعفه يخذله مجدداً.

منذ أن أحسّ بمشاعره تثور فى صدره، أصبحت هى حافزه على العمل على مدار السنوات التى عملاً فيها معاً. وأصبح للعمل روح ونكهة ومتعة. لقد أنقذته ولو لساعات من الشيخوخة والمرض والجلوس فى الركن الظليل الذى يضم غير المرغوب فيهم.

ولكنها اليوم هى السبب الوحيد الذى يمنعه من العمل. لم يرد أن يعترف أمام نفسه بكل هذا وكان حسبه أنه يحتاج للراحة. ولم يتوقع منها ألا تهاتفه لتسأله عن سبب غيابه، وهى أيضاًلم تتوقع ألا يهاتفها ويخبرها بأنه لن يأتى.

ولكن كان عليه أن يضع حداً لسيل الأفكار الحمقاء التى انتابته.

دون أن يدرى أحسّ بمدى صعوبة اليوم الذى لا يراها فيه، ولم يستطع أن يتخيل حجم الكارثة عندما يأتى اليوم الذى يكون فيه مضطراً إلى احتمال غيابها عنه دائماً.

إنه سيأتى حتماً. هو يعلم أنه سيستطيع أن يحيا أو حتى أن يموت بعدها، ولكن أى حياة وأى موت لا يعلم. ثم منذ متى وهو يفكر بجودة الحياة؟ لقد مرت وحسب.

وضاع كل شيء، الشباب.. المتعة..السعادة التى لم يعرفها.

هل سيفكر فى ذلك الآن؟

لم يبق له سوى ميزة واحدة تحققها له هذه السن ووقع السنوات المنصرمة وما قد يأتى بعدها، إنها الحكمة والوقار، ولا يعتقد أنه سيفرط فى الهبة الأخيرة للحياة.

إن مشاعره تجاهها إن لم يستطع تهدئتها، فعليه على الأقل أن يحرس سريتها بعناية أكبر. فعندما تظهر فى طريقه الكئيب المعتم امرأة مثلها فعليه أن يشعر بالخطر.

وأقوى دليل على ذلك ما يحدث له الآن. إنها ليست جميلة جداً فقط ولكنها تمثال مجسد للفتنة. كلما مرت بخياله صورة عينيها، شفاهها، صدرها، ليونتها، حلاوة إطلالتها فإنه يرتعد كأنما مسَّه شيطان. هو يرى أنه لا حق له فى مجرد استعادة قسماتها ومعالمها فى خياله. إن مكانها ليس سوى فى صدر شاب.

أما هو فعليه أن يستعد للسنوات القادمة؛ لأنها ستحمل المزيد من الشيخوخة والمرض والمزيد من الوحدة.

فعذابه من أجلها يتأجج؛ ربما لأنه لازال بعد فى أول الطريق،و لازال يحتفظ بمظهر حسن وقوام فارع معتدل لم تحنه الأيام رغم مرضه.

24

لم تتخيل "جميلة" أنها ستجد باب حجرة دكتور "بهجت" مغلقاً فى وقت من المعتاد أن يتواجد فيه .لقد كان حريصاً دائماً على إخبارها مسبقاً بتغيبه. اعتقدت أنه من الممكن أن يكون مريضاً ولكنها لم تشأ إزعاجه والتطفل على حياته ولو بالهاتف.

لم تبق بالجامعة ولم تعد إلى البيت، قضت باقى الوقت فى مقهى قريب من الجامعة.

كانت تشعر بضيق لا تستطيع تحديد سببه، ربما كان له علاقة بسعادتها الغامرة بالأمس عندما أحست بقلب الأستاذ ينفتح، وعيناه تقولان بوضوح أن لها مكانة لديه تختلف عن باقى البشر.

إنها تعترف بأنها كانت تتمنى أن تجده اليوم، ربما ليتأكد لديها ما أحست به، ليزداد عمقاً، ليكون حقيقة فى سماء العالم الغائمة.

كلما صارا قريبين كانت هناك مسافة تُصطنع بينهما، إنها واثقة بأنها غير حقيقية.

وهى واثقة أيضاً أنها لم تصنعها ولكنها تجد نفسها مضطرة دائماً إلى احترامها والوقوف بعيداً.

أما المحبة فلا تحتاج لتوثيق فميثاقها هو الإحساس بها وحسب دون أن نعوق طريقها أو أن نصنع لها قوانين وتقاليد. هى تحتاج إلى

مشاعره، إلى أن يملأ بها وجودها طالما أنه يملك مشاعر تجاهها. لماذا يتجاهلها بدلاً من أن يمنحها إياها؟

أى مرض يصيبنا ليجعلنا نقمع أنبل ما لدينا؟ لماذا يجعلها تتساءل دوماً إن كان لها مكاناً لديه أم لا، ولا تحصل على إجابة قاطعة تريحها.

أحياناً تصيبها نوبة من التمادى فى أطماعها فتتمنى أن يكون قلبه كله لها أو لا، هو الذى جعلها تطمع، جعلها تحلم بعدما كادت تتخلى عن كل رغبة فى الحياة. هو الأعين الوحيدة التى تستطيع أن تطيل النظر إليها بلا وجلٍ، هو الأمان والسلام .

لماذا يخيب آمالها الكبيرة فيه دائماً؟ لماذا لا يمنحها اليقين ليرتاح قلبها؟

لماذا يحرص على أن يجعلها تشعر بأنها غريبة عنه وعن دمه رغم أنها تشعر فى أوقات بأن ما بينهما أهم وأعظم من رابطة الدم؟

وربما كانت مجرد حمقاء تشعر بما تتمناه فقط. لماذا لا تستقيم الأمور على حقيقة واحدة؟

إنها تريد قرباً يسد المسافة بين القلب والكلمات الفارغة من المعنى، قرباً يُرضِى آمالها. قرب الدماء الغريبة عندما تفهم أنها من نبع واحد.

إن الحدود تؤلم عقلها، سنوات ولم تُبلى محبتها الصادقة الحواجز التى تصل أحياناً إلى رقبتها.

لقد ملت الحديث المحايد ذا النغمة المتحفظة. لم يكن هو عادياً بالنسبة لها ليكون حديثهما عادياً إلى هذه الدرجة، جامداً وغريباً.إنها لحظات قليلة تلك التى تشعر فيها بأنهما أقرب مايكون، وأن كلا منهما يستطيع أن يقول ما شاء بلا تحفظ.

كل ما يخطر بباله كل ما يؤرقه كل ما يملؤه يأساً من الحياة كل ما يعييه كل ما يحزنه كل ما يقيده كل ما يأمله كل ما يعتقده وكل ما يكفر به كل ما يتخيل أنه قد يكون مفرحاً أو مفاجئاً أومفزعاً..كل شيء..كل شيء دون تخطيط..دون حسابات دون خوف أو تحفز أو لوم، دون ادّعاء.. فقط بصدق كامل، برغبة كاملة، بتواصل لا تشتته الظنون والأفكار.

ولكن لا شيء من هذا يحدث بالقدر الذى تتمناه، مجرد إمكانية ومجرد احتمال.

أى إنسان هذا الذى يستطيع أن يجد الآخر بينما هو عاجز عن أن يجد نفسه؟

إنها ضائعة وهو بقسوته وتقلُّبه يزيدها ضياعاً.كانت تعرف أن النور الذى يُحجم عن إضاءة الظلام هو أقرب للوهم.

25

فى المرة التالية لمحته بمجرد وصولها، زفرت بارتياح وألقت عليه التحية. لم يرد حيث كان منهمكاً فى الأوراق كالعادة، كان ذلك أمراً سيئاً ولكنه ليس جديداً.

جلست فى مواجهته ولم يتحدث أحدهما، حتى سألته عن أخباره. لم يزد عن كلمة

– بخير.

وعاد إلى أوراقه. وهنا أخرجت جزء آخر من الأوراق التى كتبتها.

– هل لديك وقت من أجل هذه الأوراق؟

تناولها من يدها ووضعها أسفل أوراقه وهو يردد كلمة:

–حسناًبصوت غير مسموع تقريباً.

مرت دقائق حتى نظر إليها

– سأراجعها بالبيت ونتناقش فيها فيما بعد.

نظرته تطعن كنصل حاد بارد. ظلت دقائق أخرى لا تدرى ما تفعل.

– حسنا سأنصرف. ربما بالغد أعود.

أومأ دون أن ينظر إليها.

عادت إلى البيت وهى لا ترى شيئاً ولم تكد تنتبه لخالتها التى أدهشتها العودة المبكرة. لقد عجزت حتى عن أن تسأل نفسها ماذا حدث.

هذا يكفى ولن يعد هناك المزيد من العذاب. كل ما هناك أنها تُنهى بحثها وتنتظر الحصول على الدرجة. لقد ذهبت إليه منذ ثلاث سنوات تطلب الدرجة العلمية. ولكنها وجدت ما يدفعها لطلب المزيد. أب ومعلم،كان ذلك أكثر أهمية من مطلبها الأساسى. ففى هذا العالم وُجِد قلب، وهذا ما لم تتوقعه. هو الذى بذل العهد دون أن تطلب هى ودون أن يفكر فى أنه عاجز عن الالتزام به. وهى عاشت بإرادتها فى حدود العهد. لم يكن مكلفاً بذلك..لِمَ أثار أطماعها؟

لقد كان عرضه أسخى عرض تتخيله فتاة لم تنس يوماً أنها تريد أباً بالرغم من رضاها بالأمر الواقع.

كم عانت فى تشبثها بعهده الذى كاد أن يكون سراباً. عليه الآن أن يعلن تراجعه عن أول وأجمل ما قاله، ليضع حداً للحلم المسموم.

الآن! وهى تنهى عملها معه لتبدأ عملاً جديداً.. معه أيضاً. الآن يعلن لها أنه لا يرغب فى ذلك! الآن يبعدها.. يزيحها!

كان عليه أن يُنسيها الحلم بطريقة أكثر رفقاً كما زرعه بأيدى رحيمة.

هل يتصور أن يده وهى على كتف زميلها، وحديثه الحميم الذى يتدفق دون تكلف، مزاحه المتساهل، خطواقما معاً، ضحكاته الصافية..طلاقة الكلام، الصداقة البعيدة التى يمنحه إياها بكل بساطة. هل يظن أن كل ذلك لم يحرق قلبها؟ لم يبعدها عنه رغماً عنها؟

هل يظن أن الغيرة لم تمزق أجفانها لتحرمها النوم الهادىء؟

كل هذا ؛لأن زميلها رجل مثله وهى امرأة. امرأة أى تستحق الإبعاد، تستحق الخوف منها والحرص على ما يقال لها وما يباح من الأفعال. تستحق التهميش ؛لأنها تجلب الظنون، لماذا يقربها

منه الأستاذ؟ كيف يربت على كتفها وهو جزء من الخطيئة؟

كيف يحدثها بمثل تلك الحميمية حتى يقولوا أن الأستاذ يشتهى فتاته؟

إن لديها جسداً يحمل كل الخطايا التى يفر منها الأتقياء.

النظر إليها، الحديث معها من القلب، محبتها، لمستها البريئة، كل ذلك لن يستطع الهرب من سجن الجنس.

لو كان يفكر مثلهم لما ألقت بالاً لعهده، ولكنه ليس مثلهم، ورغم ذلك فقد حكموا ببطلان العهد. ليس هناك أب لفتاة ليست من دمه.

كم من مرة مدح أخلاق زميلها المتحفظ الذى كان لا يرتكب إثمَ إلقاء التحية عليها، كانت بينهما مجرد دمية.. شيطان.

نفثت الكلمات من فمها كالنار

- أبى وأستاذى..اللعنة على الحياة..وعليك.

لقد أوفت بعهدها لنفسها وكفّت تماماً عن أن تحزن من أجل شيء.. أى شيء. ولكن هاهى تذوق طعم الدموع فى فمها بعد أن نسيته لسنوات. كان بكاءً عنيفاً،كتمت معه شهقات كادت تمزق صدرها.

اليوم مات أبوها وماتت أمها..اليوم هى حديثة اليتم. إنها ليست بلهاء، هذا ليس تجاهلاً عابراً كالذى اعتادته منه، إنه نتاج قرار لا تعرف ما هو، تصحيح لأمر يراه غير سوى. ما فعله غير منطقى ولا يحتمل أى تبرير.

لم تشعر يوماً بأنها تحتاج لأحد مثلما احتاجت إليه، إنها تهرب دائماً من الجميع، لم تُقبل إلا عليه، ورغم العذاب الذى سببه لها إلا أنها لم تعرف الحياة سوى معه.. بجواره.

وبالنهاية لم يودِّعها حتى بلطف، طردها من حياته.. لِمَ؟!

هى لا تدرى ولكن هذا ما حدث. كانت عيناه رسالة السلام والمحبة هما اليوم عنوان النفور والنبذ. إنهما من جمعهما وهما من سيفرِّق. لأى سبب؟ لا تعلم أى حديث دار بذهنه؟!

كل شيء غير منطقى غير مقبول غير معقول فلماذا تطلب اليوم سبباً؟ إن حياتها مجرد سباحة فى حلم غريب عابث، تهريج لا يرقى للمزاح الجيد. ولحظة اليقظة بعيدة مجهولة لا تعلم هل هى آتية أم أن الحلم سينتهى بانعدام الرؤية؟!

26

بعد أن قضت الليل كله فى الكتابة، كانت "جميلة" فى الصباح أمام باب دكتور " بهجت". سارت إليه ووضعت أمامه المزيد من الأوراق. رفع نظره وجلست.

– أتمنى أن تمنحنى وقتاً لمراجعة كل ما انتهيت من كتابته.

ظل نظره موجها إلى مكتبه دون أن يقرأ ودون أن ينظر إليها.

– فأنا أحتاج للانتهاء من البحث، والخطوات الباقية قليلة.

تغيّر وجهه – بالتأكيد.

صمتا فترة حتى نظر إليها وهو يخلع نظارة القراءة

– هذا جيد، ولكن هل هناك سبب محدد يفرض التعجل؟

لم يكن احتمال مشروع زواج قريب بعيداً عن ذهنه.

– أى شخص فى مكانى ستكون لديه نفس الرغبة.

تناول أوراقها بغير حماس وأخذ يتصفحها بذهن شارد.

تأملته وعقلها يحاول على غير توقع منها أن يجد مخرجاً،لقد كانت تحاول أن تجد فيه شيئاً يعيد الأمور على الأقل إلى مجراها السابق، ولكنها لم تجد.

كانت تتمنى أن تعرف ماذا يحمل داخله هذا الرأس الذى أحبته أكثر من أى شىء فى العالم.

- أشكرك كثيراً.

نظر إليها متسائلاً:

- لقد كنت إلى جانبى فى كل خطوة.

ظل ينظر إليها دون أن يتكلم.

- إذا كنت تريد منى أن أمضى كالأمس فسأمضى.

أمسكت بحقيبة يدها وتركت مقعدها وتوجهت إلى الباب وخرجت.

إلا أنها عادت بعد لحظات ووقفت أمامه كعامود من اللهب لم تهدئه دموع لا زالت حبيسة.

- لَم تفعل معى ذلك؟ اذكر شيئاً واحداً فعلتهْ يستحق كل هذه القسوة. ستصمت ولن تُجيب ولكنى أقول لك أن الشىء الوحيد الذى أحمله لك هو المحبة. لم أعد أستطيع الصمت، إنك لا تمنح مقابل للحب سوى العذاب. وأنا تعذبت بما يكفى؛ لأن أصرخ. تذكرى أن لك أباً هنا! إننى لا أذكر شيئاً سوى أننى حشرة متطفلة فى حياة رجلٍ غريب. لقد صدقتك ؛لأننى أردت ذلك، فصرت أتسول طوالَ الوقتَ.

وقبل أن تخرج من الباب أوقفها نداؤه:

- إذا كنتِ تريدين أن نتحدث فليكن ذلك بمكان آخر، أنا أيضاًأحتاج لذلكَ. أعدك أنها ستكون المرة الأولى والأخيرة.

قبل أن تغرب الشمس وجدته جالساً فى مقهاه المعتاد. طلبت من النادل مثلما طلب قهوة بدون سكر.

لم يمر وقت طويل حتى بدأ بالحديث.

- لا أرى أن هذا المشهد منطقي ولكن على المرء أن يستمر. وأنا أحتاج إليكِ أنتِ تحديداً؛لأخفف من أثقالى.

صمت ليستريح قليلاً من معاناته.

- انظرى إلىّ جيداً،هل كان من الممكن أن تتخيلى يوماً أن رجلاً مثلى يمكنه أن يحبك.

لم يستطع النظر إليها ولا إلى المنضدة حيث يرى يده المهتزة.

نظر أمامه بعيداً حيث لوحة الأرجوحة التى تحلق بفتاة عالياً وهى مستسلمة ومنسجمة لدفعاتها.

- أتوقع أن أرى دهشة عينيك.يوماً ما أمسكت قلماً وورقةً ورسمت وجهك. ثم كتبت شعراً..عنكِ أيضاً. أخفيت تلك الأشياء عن عينى ولكنى لازلت أذكر مكانها جيداً. تصورى أنه لازال لدى قلب. إنه ليسْ مسنًا ولا مريضاً مثلى.

أنا آسف إن كنت سببت لكِ حيرة أو ألم، فلم أرَ سوى ألمى. أعترف أننى لم أستطع الإيفاء بالتعهد، لقد حاولت، ولكنى إذا ادعيت أننى تمكنت من ذلك كنت مخادعاً.

لم أكن طموحاً الى أن أقع فى الحب فى مثل تلك السن، ولكنى كنت مرغماً.

وللإنسان أن يعترض على ذلك؛ لأنه غير مناسب، ولكن ماذا يفعل إذا أحب عذابه.

لا يمكنكِ أن تظنّي شيئاً سيئاً..أليس كذلك؟ لأننى أنا هو نفس الشخص الذى تعرفينه بالطريقة وبالتعريف الذى يناسبكِ. وهو الذى أحبكِ بكل طريقة وبكل تعريف.

حاولت تجاهل تلك المشاعر ولكنك كنت أمامى دوماً بينما هى تنمو وتنضج. وداخلى لم يعد كخارجى. أكاد أقول أننى صرت رجلين، أمامك.. أمام جوهر واحد فريد لا يتغير نقاؤه.

لم تتخيلى هذا على الإطلاق ولكِ كل الحق. تعبت كثيراً والآن استسلمت تماماً لاتجاه الرياح التى قادتنى؛ لأستريح أخيراً وأنا أعترف بكل شيء أمامك أنت، ولم أفهم يوماً أن هذا هو الحل الوحيد للإحساس ببعض الراحة.

قابلتى وستقابلين من يقول لكِ مثل هذا، وأطلب منك أن تنسى ما قلته بعد أن أفرغ منه. وأعتذر إليكِ ثانية عن كل لحظة ضيق تسببت فيها دون أن أقدّر.

وأنا موجود فى كل وقت كما عهدتينى ولن أدخر جهداً ولا علماً لمساعدتكِ.

وأُذكّركِ أننى أنا كما تعرفيننى دائماً.

مضت جميلة بعدما طلب منها برقة أن تنصرف. وواجهها الهواء خارج المقهى عاجزاً عن أن يجعلها تفيق من الحلم الذى كان يجرى بالداخل.

27

كثيراً ما تأخذ الأمور مجرى غير المتوقع لها، وتصبح المشكلة ليست فى طموحاتنا بقدر ما هى فى قدرتنا على التكيف مع المسارات الجديدة.

وجدت جميلة نفسها أمام رؤية مختلفة تماماً، وكان عليها أن تجد المرونة التى تستطيع بها تغيير مجال النظر.

لقد عرفت يقيناً أن دكتور بهجت يحمل لها مشاعر تفوق ما تتصوره. ولكن أسوأ ما فى الأمر هو تلك الوقفة من أجل تحديد نوع هذه المشاعر.

احتاجت وقتاً طويلاً لمجرد محاولة التصور. لم تعرف هل ما حدث كان شيئاً جيداً أم سيئاً، شعرت أنها يجب أن تعرف ذلك أولاً قبل التفكير فى طريقة استعادة التوازن.

ما استطاعت أن تصل إليه هو إحساس بالإعجاب والتقدير لشجاعته، ليس فقط فى الاعتراف ولكن فى رفضه وضع الآخرين مشاعره فى قالب تحت أى مسمى.

لقد ترك نفسه دون قياد فقادته، والنفس عادة لا تعتد بالظروف والمسميات، وأحياناً لا تعرف سوى المعانى المطلقة.

وليس من الرحمة محاولة وضع الإنسان أمام نفسه فى مواجهة

لتقويمها وتكييفها بحسب معطيات الواقع. لقد كانت مجحفة طوال الوقت وهى تفرض شكل ونوع محدد لعلاقة ليست هى الطرف الوحيد فيها، ولم ترَ سوى ماتتمناه فى إطار المُفترَض والمنطقى.

والآن أدركت "جميلة" أن الإنسان لا يستطيع أن يواجه الحياة بعقل مُحَمَّل بالقناعات، فعليه أن يترك الحياة لتثير فرضياتها الخاصة وتهدمها أو تؤكدها أو تطورها أو تضع أخرى مكانها.

المهم أننا لا يجب أن نتعسف مع الحياة ونقمعها بمعتقداتنا بينما نحن لا ندركها. حتى أن لفظة الحياة نفسها هى كلية وغامضة، ورائعة ومرعبة. وعلينا أن نعلن تواضعنا أمامها بالقدر الذى يليق بها وهو مقدار جهلنا بها.

لقد لقَّنها الأستاذ درساً جديداً هذه المرة دون أن يقصد. وعلى كل حال لم يكن انعكاس ما حدث على علاقتهما سلبياً.

كانت نتيجة المصارحة غير مفهومة تماماً ولكن ما يعرفه كلاهما أنها ألقت ظلالاً من الارتياح. استطاعت أن ترى عينيه صافيتين دوماً بلا مواربةٍ ودون آثار عناء الجهد المبذول لإبقاء الوضع طبيعياً؛ وذلك لأنه أصبح قادراً على مواجهة عينيها بعد أن فكر بها الليلة الفائتة ، ومع علمها بأنه كان يفكر فيها.

وربما كان الاعتقاد الذى تشارك فيه الاثنان وهو أن علاقتهما كرجل وامرأة لا أفق لها، سبباً لرفع الحرج وسببا أيضا لوجود حاجز جديد مبهم ومطلى بالشجن.

ولكنها فكرت لم لا يكون الموقف أكثر بساطة؟ فإذا كان على الإنسان أن يمر بمشاعر مختلطة لا مسمى لها فبإمكانه صنع تركيبات شعورية خاصة به، مع منحها مصطلحات إبداعية. لقدكانت تبحث عن نموذج جاهز أُعِدّ مسبقا يُجسِّد صورة المعلم بروح الأب. ولكنها وجدت معلماً بروح العاشق. كان مجمل معطياته يرجح التعريف الأول، ولكنه فى لحظة تمرد على تعريفاتها ومصطلحاتها. وعليها أن تحيا التجربة بعد إعادة تشكيلها. ولم لا؟ إنه يحبها، وشيء رائع.. أن يحبك إنسان.

28

للتو مات واحد، والآن الثانى يموت. ليست النهاية فهناك ثلاثة يلفظون أنفاسهم دون أن يشعروا وهم غارقون فى غيبوبتهم العميقة. ربما كان من الأفضل أن يموت الإنسان دون أن يعرف.

لا يعرف دكتور يوسف لماذا يريد أن يتقيأ مع كل مريض يموت. ولكنه يعرف لم تُستثار أعصابه أمام جثة ودَّ لو هزها بعنف أو لكمها. إنهم يستسلمون! وهناك موت حقاً، وهو بنفس قذارة المرض والحياة. ثلاثة أشياء لزجة تعلق بالإنسان ويمكن أن نضيف إليها الإنسان ذاته.

الجسد موحِل، ليس هناك فارق بين مشهد إنسان يحتضر و ما يمكن أن يوحى به صوت فأر يئن بضعف تحت قدم.

شىء مخزى أيها الموتى! وأنتم يا من تقتربون من الموت. ولكن بغض النظر عن ذلك كان علي هذا الطبيب أن يساعد آخرين يتمنى لهم حقيقةَ الموت؛ لأنه أكثر نظافة من حالهم تلك.

وهو فى كل لحظة بين هذا الكم من المرضى ينادى بالحق فى الموت النظيف، النظيف نسبياً. ولعل الإنسان فى مكان مثل هذا يستطيع أن يرى أفقاً للغد، ويرى أنه غالباً لن يختار النهاية ولكنها هى التى ستختاره.

ومن حسن الحظ أنه لازال لدينا كلاماً نقوله؛ لأن علينا أن نكمل الحرب ضد الجسد، أو تحديداً ضد الأعضاء المتمردة، والحرب ممتدة إلى جحافل الكائنات العدوة الدقيقة والمتطفلة .

وغير تلك من الخواطر التى دارت فى ذهنه بسرعة لا يمكن حسابها قبل أن ينتهى يوم العمل ويعود إلى البيت. ويمكن تخيل مشهد مائدة الطعام بعد العودة من مذبحة تتم فى صناديق القمامة. خمس مرات يعود فيها إلى الصنبور وفى المرة السادسة وجد نفسه يندفع لارتداء قفاز طبى .

جلس على المائدة. للمرة الأولى يرى الجالسون هذا المشهد، رغم أنه لا يمكنه تناول أى طعام داخل الجحيم المسمى بالمستشفى إلا بقفازاته المعقمة. وفى هذا اليوم لم يستطع منع نفسه من ارتدائهما بالبيت رغم محاولاته السابقة للتماسك.

اتسعت عينا الأم، ونظر الأب بازدراء وأكمل طعامه، أما الأخوان فلم يبديا أى اهتمام فيما عدا الابتسامة التى اندفعت إلى فم أصغرهما. وجميلة رأت وجهه واضحاً فى مواجهة قفازيه.

بعد انتهاء الطعام ظلت الأم فى حجرتها تفكر فيما يمكن أن يحدث. وقبل أن تستدعيه للتحدث معه، كان هو الذى طرق باب غرفتها ليُبلغها بأنه سيحصل على إجازة من الغد.

لقد فكر فى الأمر وهو فى طريقه إلى البيت فهو فى حاجة إلى وقت ليفكر فيما سيفعل، وربما لن يفعل شيئاً على الإطلاق.

لم تنم الأم.. فقد أوشك الابن على أن يُجنّ، وفى اليوم التالى ذهبت لتتحدث معه.

- أهذا كل ما عندك؟

لم يرد عليها فأكملت :

- احصل على إجازة كيفما شئت ولكنها لن تطول، فعليك أن تفكر فى مشكلتك وتجد لها حلاً فى أسرع وقت. لقد تحملت الكثير من أجل الحفاظ على هذا البيت وأرغمت نفسى على ما لا أطيق حتى يسير كل شيء على ما يرام. هل تفهم؟ لن أسمح لك بإفساد شيء آخر ويكفينى أخوك.

صمت كلاهما حتى قالت آخر ما لديها.

- فكّر فى الزواج، وسندبر أنا وأبيك كل شيء. لدينا المكان، والعروس كانت جالسة أمامك، لن تجد أجمل منها. قبل أن تجيب فكّر جيداً وحاول أن تعرفها فربما صارت اختيارك لا اختيارنا. أعتقد أن حياة جديدة يمكنها أن تجعلك شخصاًجديداً.

اتجهت إلى الباب

- أتمنى ألا تستغرق وقتاً طويلاً فى التفكير، فأنا أريد أن أنام وأنا مطمئنة أن كل شيء على ما يرام.

لم يجد علاقة حقيقية بين عرض الأم وأفكاره. ولكن كان ينبغى أن يعرف أن الأمور لن تكون على ما يرام على الأقل بالنسبة للأم. أما بالنسبة له فلم يعد يهمه كيف يمكن أن تكون الأمور.

إنه يكره ذلك التعبير وتلك الرغبة التي يتضرع الجميع من أجلها.

إن الأمور لم تكن على ما يرام ولن تكون. هذا الأمل ليس حقيقياً. إن الحياة على الأرض كريهة وأبغض ما فيها أننا نريد أن نكون على ما يرام بينما الحقيقة غير ذلك. فعذاب يستعر فى جسد واحد قد أفسد الحياة بالفعل، والعذاب أو الفناء الذى نتوقعه لأجسادنا هو احتمال يصبح واقعاً يوماً ما كامتداد لسلسلة إفساد ما هو فاسد. وهو يرى أنه لا معنى؛ لأن تكون على ما يرام، فالحياة هى فعل إجمالى بوجهة نظر فردية. أى أن هناك

محصلة هى الأكثر أهمية ولو أننا استطعنا حسابها فإنها لن تكون فى صالح الاستقرار والطمأنينة التى قد تشعر بها فى الأوقات العادية. فالحياة التى تمر بشكل عادى يومى لإنسان ما، ليست عادية فى محصلتها. ولم تكن عادية يوماً ما ولم يمر يوم يمكن أن يرتفع فيه صوت البشر ليقرُّوا بأنهم جميعاً يعيشون يوماً عادياً. هذا إذا قرروا أن يمدحوا هدوء يومهم أو إذا قنعوا بأنه كاف جداً أن تكون الحياة عادية.

وهو لن يتحدث عن العدالة ؛لأن وقتها قد فات، فهى باطلة على الأقل بأثر رجعى. باطلة طالما أن رؤوسنا تحمل تاريخاً ،وكتبُناتحمل تاريخاً وأعيننا تحمل حاضراً. فى بداية عمله رأى بوضوح الجحيم ماثلاً أمام عينيه دون أن يحتاج الإنسان للبحث عنه فى حياة أخرى والمُعذّبون أمامه يتلقون عذابهم بدون حساب. وأعلن للجميع فى لحظة غضب أن الحظ هو الحكمة الوحيدة فى كل ما يحدث.

أحد زملائه نصحه بأن الإنسان لابد أن يعتنق بقوة عقيدة ما ليجد مبرراً لكل ما يراه وليحصل على الهدوء والثبات اللازمين تحديداً لطبيب.

هو الآن ببساطة لم يع· يستطيع احتمال استمراره فى وضع المُراقِب، وأحيانا المنتظر لمصير يراه أمام عينيه كل يوم . وكان قرار الحصول على إجازة قرار مناسب فى الوقت المناسب ؛لأنه كما اعتقدت أمه قد أوشك أن يُجَنّ.

لقد بدأ الأمر بسؤال قديم "ما ذنب هؤلاء؟" ثم من هؤلاء؟ مع صدى تكرار سؤال أزلى "من هو هذا الإنسان؟ " وهو سؤال لا يخلو من الاندهاش المتقزز من مدى وقاحة هذا المخلوق.

والإجابة لا تتحدد أمامه بكلماتٍ ولكن بشعور يكتمل وصورة تصرخ بأنه مخلوق ذو سلطة غير شرعية.. يبسط سلطانه على كل شيء ويفترض لنفسه حقوقاً هو الذى يخترعها. كون الإنسان مخلوق بائس معرّض لأى شيء ويخشى كل شيء،لا يدعم استعلاءه على كافة المخلوقات –بما فيها قطاعات كبيرة تنتمى لنفس نوعه– واعتناق فكرة أنه سيد الأرض.

وإنه يريد أن يسأل هذا الإنسان: ألست تخجل من طفوك؟

انتبه إنك بلا منبت.

وضع الإنسان مشين وهو يصر على الاستزادة من بواعث الشعور بالعار.

السؤال الآخر الذى دار بذهنه هو لماذا يستحق الإنسان هذا الجسد العبقرى الصنع؟

والإجابة هى.. لأنه يعتقد ذلك.

ثم لماذا يعتقد ذلك؟ لأن هذا ما حدث.

فليفخر بما لديه وليتحمل ما عليه وهذا كما يقولون هو دور الإنسان الجيد.

ثم كيف يخترع منظومة من الحقوق الواجبة تجاهه؟ إنه طاف بلا جذور وبلا أصحاب أو مُلّاك.

هو طفيلى وهذا أقرب لوضعه الواقعى من كونه صاحب حق.

ولكنه يملك جرأة مثيرة للدهشة ويسأل بحنق "لماذا؟"

يوجهها للسماء وللأرض وعليه أن يوجهها لذاته ذلك المنعدم التعريف المتطفل على الأرض بفظاظة. وإذا سُئل عن هذا فقد لا يجد مبرراً منطقياً لوجوده سوى أنه وجد نفسه موجود.. وهو لا يملك الجرأة ولا الرغبة فى إنهاء ذلك الوجود، وأنه لا سبيل أمامه سوى مواصلة الوجود، وقد يعترف بأن فكرة الوجود راقته؛ لأنها تقدم له الكثير من المتع.

إذن كيف يشكو من ملل الحياة ومخاطرها وصعوبة الحصول على المتعة؟ بأى حق؟

ويتساءل عن طبيعة الأشياء ويملك حلولا لصالحه ويبقى هو وحده السؤال الصعب.. جداً بدون حلول.

أليس من حق هذا الطبيب أن يفقد عقله أمام الحياة المجرفة من كل أساس؟!

لقد حاول أن يكتب تقريراً عن الوضع الصحيح والواجب على الإنسان أن يتبعه. مثلاً أن يكون خجلاً.. لا يكفى، أن يشعر دائماً بالعار والنقص والضعة، ليس ذلك معبراً تماماً فقد تجاوز الإنسان بأعماله كل ذلك. أن يبكى للأبد.. أن يرضى بعذابه وألا يتطلع لمتعة ما بعد اليوم، أن يجلب لنفسه بيده العذاب الذى يعانيه الآخرون والذى كثيراً ما يكون هو سبباً فيه. وأخيرا أن يقتل نفسه أحياناً.

كل ذلك لا يمكنه أن يقلل مقدار ذرة من كراهية يوسف للبشر وللعالم.

إن وضعهما يلغى كل كلمات القواميس ولا يترك له سوى ضمير وفعل هما "أنا أكره".

29

كان من الغريب أن يجد زائر لتلك المدينة مسرحاً بمنطقة نائية كهذه، والأغرب من ذلك الأفواج التى أتت لمشاهدة العروض.

هو فى الحقيقة ليس مسرحاً حقيقياً ولكنه خيمة كبيرة مزينة بالألوان والأضواء ولوحة كبيرة مضيئة تعلن للقادمين من بعيد أنهم يقتربون من " العالم المدهش" وهو اسم المسرح.

صاحب المسرح هو نفسه الذى يقوم بتقديم الفنانين المشاركين فى العروض كل ليلة. وهو رجل فى السبعين من عمره.

بدأ عرض الليلة فى حضور عدد جيد أخذ يتزايد أثناء تقديم الفقرات.

فى مدخل الخيمة كُتِب "الدخول مجاناً" مع إضافة شطب متكرر لها يؤكد أنه قرار ملغى.

عندما انكشف الستار وألقى الرجل الكلمات التى اعتادها كل ليلة دخل شاب إلى المسرح وهو يقفز على قدم واحدة؛ لأن الساق الأخرى مبتورة حتى سقط على الأرض، فجاءت فتاتان جميلتان ترتديان ملابس ضيقة قصيرة تلمع بقوة لتناسب أجواء السهرة وساعدتاه على الوقوف ليأتى صوت صاحب المسرح:

– لقد مات أبوه فى الحرب ثم.. أكمل أنت.

فنظر إليه الفتى بتردد ثم نظر إلى الأرض بخجل:

- مرت سيارة على ساقى ثم بتروه.

- حسنا ، أكمل والمشكلة..

لم يرد الفتى، فنظر الرجل إلى الجماهير وأشار إليه:

- هكذا يفعل كل ليلة. أكمل يابنى المشكلة أنك لا تجد طعاماً،ولا تجد من يحتاج إلى عملك. لندعه يشاهد معنا هذا العرض.

تقدم إلى المسرح عدد من الفتية والفتيات كلهم من المصابين بإعاقة ذهنية ويحملون الشكل المغولى المعروف. أجسادهم قصيرة بدينة تجمعت فى حلقات وهم يرتدون أزياء ملونة تحمل طابع شعبى أعدت من أجل العرض.

وجوههم تدل على أنهم لا يدركون شيئا على الإطلاق ولا يملكون من أمرهم شيئاً ولكنهم كانوا يدركون جيداً السعادة التى يشعرون بها وهم منهمكون فى الرقص الذى دربوا على آدائه على نموذج رقصات شهيرة يعرفها الجميع، ولعلهم لم يفهموا الضحك الهستيرى الذى أصاب الحاضرين أمام تلك الصورة الكاريكاتورية لراقصيهم المشهورين إلا على أنه مشاركة لهم فى سعادهم الغامرة وإعجاباً ببراعتهم فى الرقص.

بعد انتهائهم ارتفع التصفيق الحار وظهر الرجل مرة أخرى ليخاطب الجمهور:

- كان هناك من يطالب بأن تكون هناك رقصة أخرى للأقزام ولكنى إذا أردتم الحق اعتبرت ذلك خروج عن السياق والغرض.

ثم نظر إلى الفتاتين:

– أين الآنسة "فلاريا".

دخلت إحداهما إلى الكواليس وعادت لتخبره بشيء. رد عليها بصوت مرتفع:

– اذهبي وساعديها على النهوض.

ودخلت الآنسة "فلاريا" وهى امرأة فى الخمسين مصابة بمرض "الفلاريا" تساندها الفتاة وبدأت فى استعراض ساقها التى ظهرت كاملة من تحت فستانها القصير. كانت كجذع شجرة ضخم فتوالت الشهقات من الجماهير.

أجلستها الفتاة إلى جوار الرجل ذى الساق الواحدة. عاد مقدم العروض للحديث:

– والآن إليكم تميمتىّ حظى.

دخل إلى المسرح طفل جميل فى السادسة من عمره، كل ما يمكن ملاحظته من ملامحه هو كرة ضخمة حمراء تحتل مكان عينه اليمنى بينما تبدو عينه اليسرى عين جميلة.

هنا ارتفعت صرخات الفتيات الحاضرات:

– شيء نادر لم يكن بإمكانكم أن تروه بسهولة، إننى أبذل أقصى مافى وسعى كما ترون؛ لإبهار عيونكم المتطلعة دوماً إلى الجديد، ولكن لتعلموا، هذا الورم خبيث جداً. والآن هيا..تميمتى الأخرى.

أدخلت إحدى الفتاتين طفلاً فى نفس العمر تقريباً وأجلستاه على الأرض بصعوبة فى مواجهة الجمهور، ما يبدو فى البداية أن حالة الطفل العقلية متأخرة جداً، ولكن ما لاحظه الحاضرون الذين أتوا للمرة الأولى أن الشفة السفلى غير موجودة.

انطلقت الصرخات مرة أخرى.

- لم أقطعها أنا بالطبع..لقد أكلها.

صمت فترة ثم عاود الحديث.

- اتهمنى فتى كان يشاهد العرض بأننى نخاس وقذفنى ببرتقالة كانت معه، خفت جداً أن تؤذى عينى الباقية. ما آذانى حقاً أنه اتهمنى بالمتاجرة بعاهات الضعفاء.

رفع يده السليمة أمام الحضور.

- ولكن انظروا، هذه هى الباقية ولكنها كما ترون.

كان كفه كتلة صغيرة بلا معالم وكأنه قد تم صهرها دون إعادة تشكيلها.

- كيف سآكل وكيف سأجد طعامى.

أشار إلى الآخرين.

- وهؤلاء يأكلون معى أيضاً.

جلس على الأرض بعدما تعب من طول الوقوف

- عندما بدأ العرض لأول مرة أقبل الحاضرون وهم يظنون أنهم سيرون عروضا مثيرة لأشخاص يقومون بحركات مذهلة خطرة وغير

معتادة، ولكنهم وجدوا أناساً يعتبرون مجرد الوقوف أو السير أمراً خطراً. وهذا هو كل ما لدينا، وهم جاءوا إلى هنا؛ لأننا كتبنا على الباب أن الدخول مجاناً معتمدين على قلوبهم الرحيمة التى سترِقّ لهؤلاء ليمنحونا المال من تلقاء أنفسهم وهذا ماحدث بعدما أعجبتهم الفكرة وأعجبهم العرض كثيراً.

يمكنكم اعتبار هذا مهرجان التسول الليلى ولكن لا تقولوا أننى أتاجر بعاهات هؤلاء.

أشار للباقين أن يدخلوا واحدًا واحداً كما اعتادوا كل ليلة.

رجل طاعن بالسن كاد وجهه أن يختفى وعظامه بارزة للغاية من أثر الهزال المرعب. ثم الرجل الكسيح الذى يزحف على بطنه.

وهنا أضاف تعليقاً:

– كان يشحذ ولكنهم بعد أن اكتشفوا أن زاحفاً آخر على بطنه كان يخدعهم بادعاء العجز توقفوا عن إعطاء أمثاله مالهم.

وأنا لا ألومهم فمدعى العاهات أغرقوا الأسواق وحرموا صاحب العاهة الحقيقى من عطف الآخرين على الأقل، والمال لا يأتى بسهولة، أعلم ذلك تماماً وهذا ما جعلنى أُقدِّم نفسى كمتطوعٍ بالجيش فى شبابى. قالوا أننا سنحارب الجنوب، لم أفهم لماذا، هل لأن لونهم مختلف أو ربما عقائدهم أو لغتهم؟ أو لأن أسلحتهم تمثل خطراً فى أيدى حانقة؟ المهم أننى لم أذهب وراء لقمة العيش فقط ولكننى كنت مؤمناً أيضاً بأن الحرب واجبة، ويجب أن تكون هناك حرب على كل

حال. ولم يمنعنى من أن أصير قاتلاً مأجوراً كما فعل كثيرون ممن عادوا معى سوى إعاقتى. أما المواطنون الذين لم يطالبوا سوى بطعام لهم ووقود لمركباقم وليفعل الحاكم ما يشاء خارج بلادهم فقد نظروا إلىّ بعدما عدت كمجرم تسبب مع الآخرين فى انتكاسة بلادهم.

وهكذا لاحقتنى وصمة التشرد. هم معذورون، ولكن أليس لى العذر أنا أيضاً فى تسكعى؟

تدفق الباقون الفتى ذو الصدر المشوه الذى يشبه صدر الحمامة، والرجل المصاب بنقص المناعة والذى أصيب كل جلده بأنواع الفطريات والبكتيريا مانحة إياه ألواناً عديدة حتى أصبح شبيهاً برغيف خبز أو ثمرة بلغت حداً خطراً من التعفن، والرجل الذى ولد بغير أطراف، والرجل الذى يحمل أمامه أضخم بطن رآها الجمهور تجره لأسفل ولا يقدر على دفعها للأمام. علّق الرجل عليها بجملة واحدة:

– كلما أفرغوها من الماء امتلأت سريعاً.

ثم أكمل:

– لقد نسيت أن أقول لكم أننى لا أثير تساؤلاً بشأن المسئول عن كل هذا، فالأمر معقد. ولا يجب أن تعتقدوا فى لحظة من اللحظات أننى أوجه إليكم تحديداً قمة الإهمال أو الفظاظة والقسوة؛ لأننى أعلم أننا جميعا ضعاف لا نملك سببا لكل هذا، وأنتم جميعا معرضون لمثل هذا فى أنفسكم أو أبنائكم ولن تملكوا دفع الضرر حين يأتى كما أنكم لم تملكوا جلبه للآخرين أمثالنا. ولكن أليست فرصة جيدة أن تروا الوجه الآخر للحياة؟

هناك فتى كان يأتى كل يوم على مدار شهر، كان يبكى طوال الوقت، وأنا أشفقت عليه وطلبت منه ألا يأتى بعد ذلك طالما أنه لا يحتمل. قال لى: "بأنه يأتى إلى هنا ليبكى".

ولم يعد يأتى ربما؛ لأنه وجد ما يجعله يبكى خارج هذا المكان. وآخر قال لى: "أنه يرى الحياة بطريقة أخرى بعد أن يخرج من هنا".

يكفى أن نجعلكم سعداء ؛لأن لديكم أربعة أطراف. وبذلك نستطيع أن نشعر بالشرف؛ لأننا نقدم سلعة تستحق أموالكم.

أزالت السلطات المحلية هذا المسرح من على وجه أرض المدينة. وحزن كثيراً أولئك الذين سمعوا عن المسرح وأرادوا أن يزوروه ولكنه أزيل قبل أن يروه فاكتفوا بسماع الحكايات عنه.

30

كانت "جميلة نائمة" تقريبًا، أى أنها تنام فى ذلك الوقت بشكل متقطع، وتستيقظ كلما انتهى حلم أو حلمان متواليان أحياناً؛لأن الحلم مزعج وأحياناً هكذا دون سبب.

ساعتان كاملتان كان معها فيهما أشخاص كثيرون يأتون إلى أحلامها بالتتابع، زملاء قدامى، لم تحب أحداً منهم ولم تكره، ولكن كانت مشاعر جيدة تلك التى جرت بها أحلامها القصيرة.

وجوههم واضحة مطمئنة واثقة، إنها تسامح كل شيء، ولكنها فقدت ميعاد الامتحان وعرفت أنه ليس هناك موعد آخر لإجرائه فلابد أن تستيقظ لتتأكد تماماً من أن كل هذا هراء ولتستأنف أحلامها. فى مجملها لم تكن أحلام سعيدة ولكنها كانت مرتاحة.

كان هناك أشياء أخرى وهناك متنفس عن ضرورة إحساسها باليقظة. إنها فقدت الإحساس بالحياة وهذا ليس واقعاً جديداً، ولكن ليس إلى هذا الحد، فهى أحياناً لا تملك الصبر على مواصلة الرضا.

أربعة جدران وحمام صغير وموقد كهربى هذا هو عالمها. ببيت غريب، بيوت غريبة، هما بيتان، وسنوات تمر بها، ما يرد الكلمات ثانية إلى حلقها أن هذا أفضل من أن تكون وحدها.

كان هناك دوماً ما يرد الكلمات، الشكوى، اللعنات إلى حلقها، الآن وفى تلك اللحظة سوف تصرخ؛ لأنه كثير جداً أن يفقد الإنسان حقه فى الحزن، التظلم، فى رثاء الذات. دائماً تقول: "إننى بخير.. أنا بخير"، هى مقتنعة تماماً بذلك ولكن شيئاً ما فى قلبها أصبح كالرصاص. إنه الجزء الخاص بذاقا.. حب.. إيثار..ولع بالذات. وهذا لابد أن يقترن بالحزن من أجل الذات،أنا حُرِمت.. ينقصنى.. لقد تركونى.. كم مرة خُدعت؟

من حقي، ولنكررها دائماً هذا حقى وذاك حقى، أنا مظلوم وأعرف تماماً من ظلمنى.

أما إذا لم تعتقد بأنك مظلوم فتحمَّل عمراً من الحنق والبرود والبلادة.

فهناك من يرى أن الإنسان لابد أن يكون ساخناً إما بشعوره الدائم بأنه مضطهد وممتلىء بالكراهية والرغبة فى الثأر من الظالمين وإما أن يحمل رغبات جنسية ملحة. ربما كانت هناك أشياءأخرى...

الخلاصة أنها لا تملك كل هذا، ورغم المكابرة استطاعت أن تعترف بأننا نتاج الحياة. وهى تعتبر أن هذا شيئاً بذيئاً فلم يكن ذلك اعتقادها، ولم تكن تعتد بقوانين الحياة ،ولم تعترف بأن التاريخ حتى المُغفل الذكر منه يتكرر بطريقة غير إبداعية، وذلك كله رغماً عنا ورغماً عن إبداعنا .نحن مبدعون، نحن مخلوقات مبدعة، لقد ملَّت تلك الصرخة حتى أنها لا تكترث الآن لو تم وصف البشر بأنهم قوالب من الطين المتحجر. كانت بالفعل شديدة التعصب للإنسان

حتى وُصِمَت بالحماقة. هل هى صدمة الحب؟ إنها خيبة الأمل فى كل شىء وأولهم نفسها.

ولكن الأمر تطوّر من المشاعر الصبيانية إلى تبيّن حقيقة أننا ليس أمامنا سوى أن نكون كذلك؛ لأن الحياة كذلك وإلا فلنطرح حلولاً أخرى وتصورات جدية لطريقة جديدة فى الحياة ترضى الفرد الطموح ذا النفس الحساسة وذلك فى إطار الحياة الجماعية وقوانين الطبيعة. وهى اعتقدت أنه لابد أن يكون تصوراً متكاملاً. ولكنها الآن لم تعد تعتقد شيئاً.

وهى ليست ساخطة بكل حال، فمن الرائع أن نظل نفكر دائماً فى إعادة هيكلة وتشكيل الحياة على الأرض. على الرغم من أن مجرد محاولة إصلاحها يتكلف الكثير من الدماء. ولكن هل يُحسب ذلك لصالح البشر؟

وعودة لمحاولتها فهم جوهر مشكلتها هى، إنها تشعر بأنها تحيا بدون حقوق؛ وذلك ليس لأنها لا تحصل عليها؛ ولكن لأنه لا توجد حقوق أساساً. وهذا وضع غير مفهوم ولكنها تعتقد بأنه عام ويشمل كل من هم مثلها. باختصار فكل هؤلاء الذين يحظون بحياة مستقرة ومتوازنة، أولئك الذين أفلتوا ولو فى الوقت الحاضر من المعاناة الحسية، كل هؤلاء لا يتمتعون بحق الشكوى.

من صبا مغرِق فيما يسمى بالحياة الروحية إلى إنكار كل معاناة خارج حدود الجسد. كيف يمكن تفسير ذلك سوى بأنها هى الحياة المسئولة عن شططنا. وأننا من جهتنا نميل للنظرة الأحادية والموقف الحاد، فعقولنا لا تحتمل التناقضات.

وليس بعيداً على من تصارعه مئات من مثل تلك الأفكار فى سبيل إيجاد حلول وقناعات يتشبث بها، أن يترك كل شيء لينعم بعقل خاوٍ ، ثم يصاب بأمراض من قبيل عدم الاكتراث.. البرود..

الشرود الدائم.. جمود القلب.. لوم الذات إلى حد تدميرها..

الكآبة غير المبررة.. فقد المتعة تماماً.. فقد معنى ما يحمله البصر إلى العقل.. التناقض المفزع فى قدرته على الربط بينه وبين الحياة والآخرين إلى حد الانفصال التام عن وضعه فى هذه الحياة،ثم يقتنع بالفعل بأنه لا علاقة له بشيء وأنه لا يمت بصلة للبشر.. للأشياء.. للأحداث ماض كانت أو حاضر، وأنه أيضا لا رابط بينه وبين صورته وصوته ونفسه.

فيصبح كائناً منحلاً مفككاً لا يمكن إعادة ربط مكوناته تحت مسمى واحد. وفى النهاية لا يعرف سبباً واحداً يجعله مستمراً فى الحياة.

عندما حاولت استعراض الوضع الذى تقبع فيه من مدة لا يمكنها حسابها، اكتشفت أن الأمر خطير ولكنه لا يستدعى أى تصرف من جهتها ؛لأن جوفها مليء بأحاسيس قوية مثل القرف والتقزز.

وإنها تفضل كل هذا العذاب على أن تحيا على آثار خدعة أو كذبة كتلك التى يحتال بها الناس على أنفسهم.

31

أثناء الأيام القاتمة التى لا لون لها كانت جميلة تستعد للانتهاء من كتابة بحثها ومناقشته.

جلسا هي ودكتور "بهجت" للتفكير فى موضوع البحث الجديد. فقد كان ذلك مهماً للغاية لكليهما. كانا فى غاية الحماسة، حتى أن وجهه كان متورداً.

لم يجرِ حديث ودي فى ذلك اليوم ولكن كلا منهما أدرك بطريقة ما مدى احتياج الآخر له. ولم تعد هناك حاجة لتفسير أو تبرير فالحياة تجرى والكلمات تتدفق والأفعال هى ببساطة تحدث كيفما اتفق.

مضت ولكنها قبل أن تغادر ساحة الجامعة سمعت صوتاً يُناديها، لم تتخيل أنها ستجد أمامها يوسف.

– هل لازال أمامك عمل؟

– لا، كنت ذاهبة إلى البيت.

–جيد، أنا أخبرت خالتك بأننا سنتخلف عن الغداء.. إذا لم تمانعى.

لم تستطع رفض طلبه وإن عبثت الظنون بعقلها.

اختار مكاناً جيداً لتناول الغداء وجلسا، تفحصت وجهه بحذر:

– أنت قلقة أليس كذلك؟ ولكنه ليس تصرفاً شاذاً. نحن لسنا غرباء رغم أن كلاً منا لا يعرف الآخر.

صمت قليلاً!

– كان اقتراحهم أن نجلس سوياً ونتعارف فقد نرغب فى أن نتزوج. هل لديك مانع؟

لم تعرف بما تجيب صراحته البالغة تلك ولم يكن هناك مانع بالفعل. أجابت بترددٍ:

– لا.

– قد ترغبين فى معرفة المزيد وعموماً الأمر بسيط، لقد أرادت أمى أن أتزوج، كان ذلك مقترناًباسمك تحديداً. لم أكن معترضاً ولا راغباً، الفكرة فى ذاتها لم ترُقنى.

قد تتصورين أننى ابن جيد ومطيع وهذا ليس سيئاً ولكن لم يكن ذلك سبب جلوسنا معاً الآن.

كان السبب الأساسى فى دهشة جميلة هو موقف الخالة.

– أنتِ جميلة بالفعل، أكثر مما تصورت. ولكن هذه مجرد ملاحظة أرجو ألا تفهمى أنها أساس لما يمكن أن يحدث فيما بعد والذى لا يعرفه أحدنا. لقد كنت جالساً أفكر، وعندما شعرت أننى أختنق من طول التفكير فكرت فى خوض التجربة. أنا أشعر بأننى مستريح لما فعلت وهذا فى ظنى كافٍ للتمادى. هل كنت تفكرين فى الزواج؟

لم يكن لديها ما تقوله:

- أنا....

- أى أن لديك شروطاً محددة. كيف ترين إذن صورة الزوج المفترض؟

لم تعرف هل هو أحمق؟ لكن مظهره لا يوحى بذلك، وعينيه لا تزال فيهما آثار قلق عاصف. ولكن هل هناك مبرر لديها لهذا الوضع!

- أنا آسفة جداً؛لأنى مضطرة أن أقول لك أن تلك ليست طريقة مناسبة على الإطلاق. وأنا أخشى أن أسيء فهمك.

- تسيئين فهمى! أقسم لك أننى أعنى كل كلمة قلتها. ربما لا أستطيع أن أصيغ العبارات ولكن كيف يبدو وجهى.. أليس صادقا؟!

- لم أقصد ذلك. معذرة.

تنهد بعمق، لم يتخيل هذا الفشل السريع.

- هل تمانعين فى إكمال الحديث؟

- لا بالتأكيد.

- أنا بالفعل لا أعرف كيف أتحدث؛ لأنه لم يكن هناك من يسمع. دائماً الصمت أو مجرد كلمات تفى بالغرض. لو أردتِ أن تتحدثى فسيكون ذلك أفضل.

كانت كلماته فى غاية البراءة فساعدها ذلك على أن تكون أكثر هدوءً.

- حسنا سأجيب عن سؤالك. ليست شروط ولكن باختصار التناسب هو التعبير الأفضل.

- هل تستطيعين مساعدتى فى ذلك؟

- سأحاول.

كانت نظرة التساؤل فى عينيها أقوى من السؤال.

- كما قلت لكِ إنها التجربة. كنت على وشك أن أخبرها بأنه لا شيء مما قالته سيحدث؛ لأنى لا أفكر فى الزواج وليست لدى أفكار إيجابية عنه، وخاصة أننى أحيا أياماً صعبة.

مرت فترة من صمت متوتر وثقيل. خفض عينيه فرأت فيهما القلق البالغ الذى يضغط قلبها

- أنا متعب، ومحتاج لإنسان.. تفهميننى؟

مشاعر كثيرة وراء هذا المعنى لا أستطيع التعبير عنها ولكنها بالقوة التى دفعتنى لمحاولة إيجاده فيكِ.. أنا لا أعرف أحداً.

أحست بحرارة كلماته تملأ صدرها، فزفرت بعضاً منها فى صمتهما.

نظرت إليه، لم تعرف ما يمكن قوله، ولكنها أدركت أن هناك مزيداً من الوقت تحتاجه التجربة التى يتحدث عنها إذا استطاعت أن ترى أنها تستحق.

32

فى اليوم التالى كانت تعلم أنه سينتظرها وأنهما سيتحدثان. لم يكن لديها ما تقوله ولكن كان لديها دافع لتسمعه. وبعكس المرة السابقة كان يطول صمته، يطول كثيراً.

– كيف كان يومك؟

– جيد.

– حسنا.

عاد الصمت مرة أخرى.

– كم هى سخيفة الأفعال المُتعمَّدة! كان يجب ألا أخبركِ بكل شيء من البداية. ولكنه كان سيكون تعمداً من ناحيتى. لن أخفى عليك فمزاجى ليس...أنا لا أحب الحديث المحدد الهدف، فنحن سنتحدث عن أى شيء ولكننا فى النهاية ينبغى أن نتخذ قراراً بشأن الزواج. لن نستطيع أن نمضى فى هذا المسار فليست لدى الطاقة لتلك المحاولات. حسناً، أنت تعجبيننى. فلنتزوج.. ما رأيك؟

ظلت تنظر إليه وهى صامتة.

– أنت تريد أن تفعل شيئاً وحسب أليس كذلك؟

– دعينا نتحدث عن دوافع قد تكون منطقية. أنا أعتقد أن الانفصال عن البيت أمر يهمك ويهمنى وستحقق لنا الزيجة ذلك.

وأعتقد أننى سأكون زوجاً لطيفاً وغير مزعج؛ لأننى لا أحب الإزعاج. دعينا نجرب فأنا أشعر بأننى أختنق.

أنا لن أقول لكِ بأننى أريد أن أكون سعيداً، يكفينى أن يكون مزاجى معتدلاً... سأحاول أن أحدد أكثر.. أريد أن أشعر أن الحياة مستمرة بشكل عادى، أن أراها كما كنا نراها قديماً.. هذا أمر صعب، سأبحث عن غيره. أريد فقط ألا أشعر بما أشعر به طوال الوقت، ظلام ثقيل يعصرنى..كل شيء بغيض ومائع ومخيف . أريد أن أنجو بنفسى، ليس من أفكارى فقط؛ لأننى لو تناسيتها فهذا لا يعنى أن مضمونها لا يعبث على الأرض.

ماذا يعنى أن أنسى الموت الذى يلاحقنى فى كل خطوة؟

ألا يلاحقنى بالفعل. والمرض الذى يستعد للهجوم هنا أو هناك أوداخل جسدى ربما يختمر مرض ما سيعلن عن نفسه. إذا نسيته فهل سينسانى؟!. العجلات التى تمضى هنا وهناك بجنون، هل يمكننى أن أطمئن أننى لن أتعرض لحادث بينما أقود سيارة أوأعبر الطريق؟!. هل يستطيع من يسكنون مناطق الضعف فى هذا العالم أن يأمنوا السماء وأنها لن تمطرهم يوماً بالنيران وأن حياتهم ليست رهناً لقرارات قد تنتهى بالدخول فى حرب. أو أنهم لن يُجنُّوا فيمزقون بعضهم من أجل أى شيء؟. هل يمكن أن أطمئن إلى أننى بالغد لن أصير عاجزاً لا يجد قوت يومه، أو أن ينهار البناء الذى أحيا فيه أو أعمل به إذا ما لم يصمد أمام زلزال قوى أو ربما سيول جارفة؟.

يمكننى أيضاً أن أنزلق فى الحمام وأنا شارد دون أن أدرى فتكون النهاية. كل شئ مخيف.

ما معنى أن نحارب الشعور بالخوف بينما مسبباته قائمة؟

لست أعرف ربما تعتقدين أنني ثرثار ولكنني عادة لا أتكلم، لم أتكلم سوى معك. أشعر بالراحة فطالما أنني استطعت التحدث فلعلني أتحدث كثيرا. أليست فرصة ،ائعة أن نجد من يسمع.

– أوافق على الزواج.

على الرغم من أن هذا ما كان يرغبه إلى حد ما، إلا أنه بُهت لردها الحاسم. إنهما سوف يتزوجا!

33

تمت خطبة "جميلة" و"يوسف". ولكن "جميلة" كانت تراجع حساباتها كل ليلة، ويعاودها السؤال ذاته لماذا تتزوج؟

والرد دائماً لم يكن يبتعد كثيراً عن الإدراك المفاجيء الذى جعلها توافق بتلك السرعة. إنها كانت تفكر طوال الوقت بأن إقامتها بهذا المنزل وضع مؤقت، والجميع يعلم ذلك وأولهم خالتها. بالتأكيد كانت تنتظر أن تتزوج يوماً ما لينتهى الأمر. هناك أوضاع نحياها نعلم تماما أنها لابد أن تنتهى.. بأى نهاية ولكن من المحتم أنها ستنتهى.

والدافع فيما وصلت إليه هو الجبن ولا شك، عندما كان عليها أن تختار. كان من الممكن أن تحيا وحدها ولكنها لم تستطع.

يوسف ليس اختيار إرادتها ولكنه خيار طرح نفسه عليها فى وقت كان من الضرورى أن يحدث فيه شيء حتى لا تجد نفسها قد جمعت ملابسها وانطلقت إلى حيث بيت أبيها وليكن ما يكون.

بعد أن يتزوجا سيكون بإمكانها أن تسكن بأى مكان وهى مطمئنة إلى أنها ليست وحدها، وهو وعدها أنه لن يكون مزعجاً. فوق كل ذلك هو ليس سيئاً، حقاً يبدو مخنثاً فى مخاوفه العارمة التى عبَّر عنها ربما دون أن يشعر، ولكنه فى ذلك لا يختلف عنها كثيراً. هل يمكن أن يكون التشابه مساوياً للتناسب؟

إنها لا تعلم ولا تريد أن تعلم. هى تريد أن تحل مشكلتها الراهنة التى تلح على ذهنها بعيداً عن كل الأوهام القديمة التى تساور الفتية والفتيات فى مقتبل الشباب. هناك هدف واحد مشروع لكل منهما، ألا يمثل ذلك سبباً كافياً للزواج؟

ولكنه قد يحمل دوافع أخرى تتجاوز ما عرضه. وكيف تعرف وحديثه كان غامضاً؟ إنها تريد أن تحيا فى هدوء دون صخب أو رغبات جامحة.

عليها أن تتحدث معه أكثر لتفهم نقاط تمثل بالنسبة لها أمور فاصلة.

كان من المفترض أن تخجل ؛لأنها لم تفكر في تعبيره عن احتياجه للمساعدة، ولكنها كانت تعلم تماماً أن هذا يمثل دافعاً لا يقل أهمية عن الأول، إلا أن عدم وضوح طبيعة هذه المساعدة ومفهوم التجربة الذى تحدث عنه كثيراً لم يوحِ إليها بالكثير من الأفكار.

كل ما تعرفه أن كليهما يحتاج للهدوء والحرية ولن تعد بأكثر من ذلك كما أنها لن تطلب أكثر من ذلك. هى تعرف أن كلا منهما منهك وخاوى وتستوى لديه الحياة مع العدم، فلا مكان للآمال والوعود.

إنها تخاطر بكامل إرادتها لأول مرة، فماذا تعنى الحياة مع شخص آخر؟ منغصات وتوتر وخيبة أمل والأسوأ من ذلك جميعاً القيود التى يفرضها كل منهما على الآخر تحت مسمى الواجبات والحقوق. يجب توقع خيبة الأمل؛ لذا لا يجب أن يكون هناك أمل على الإطلاق وهذا ما انتهت إليه منذ أمد.

34

- لماذا اخترتِ علم النبات تحديداً؟

كان هذا أول ما نطق به يوسف. مضى وقت حتى استطاعت جميلة الرد، فقد جعلها السؤال تعود لماضٍ بدا وكأنه كتلة مهملة منسية وراء ظهرها

- من الطبيعي أن أقول أنني أحبه، ولكن لم يحضرني سوى مشاهد متفرقة مثل صفحات الكتاب المدرسي التي تتحدث عن أجزاء الزهرة: الساق، التخت، الكأس، الأوراق، التركيب التشريحي لأوراق النبات، وكيف يقوم النبات ككائن حي بوظائفه، أن يحصل على الماء من التربة.. الخاصية الشعرية.

وكيف كنت أقوم بتفحص كل تلك الأشياء بنفسي، كنت أقضي وقتاً طويلاً مع النباتات. ولكن حادثة ما أثارتني بشدة؛ وذلك عندما طلب منا المعلم أن نزرع حبات من ذوات الفلقتين فى إناء صغير به قطعة من القطن الطبى. كنت أراقبها كل يوم وكلى أمل أهوج، قالت أمى أنها قد تنبت ولكنها تحتاج إلى وقت.

كنت قد يئست وامتلأت غضباً ولكنها فجأة أنبتت. لم أشعر بفرحة فى كل حياتى كما فرحت ساعتها.. وعلى مدى الأيام التى كنت أرعاها فيها، رأيت وأنا فى غمرة دهشتى وسعادتى أن الحياة تهتز

فى كل شىء ومن المحتمل أن ينبت كل شىء سيقان خضراء رقيقة وطفولية كالتى أنبتتها الحبات الصلبة، إنه إعجاز حقيقى لا يكاد يُصَدَّق، حتى الآن ورغم كل ما درست لا أستطيع تصديق معجزة تلك الأرض التى نحيا فوقها.

تنساب أمامى تلك الذكرى كحلم جميل، كلما تذكرتها أشعر بظلال تلك السعادة تمسح عقلى وقلبى.

لا أستطيع أن ألخص ذكرياتى مع الزهور والأشجار والأعشاب.

إنه عالم لم يعد يجدر بنا الحديث عنه.

حاولت ذات مرة أن أستعيد تجربتى العظمى مع القطن والإناء الصغير والحبات، امتلأ القطن بالأتربة ولم يمض يومان حتى كنت قد ألقيته فى القمامة.

خيبة أملى كانت كبيرة عندما تأكدت من أن نشوى الحياة والإحساس بمتعتها قد غادرتنى تماماً.. وإلى الأبد.

- هل ندمت يوما ؟

- لست حزينة. ولم أندم على كل ما اخترت.

- تبدين متوائمة مع نفسك كثيراً.

- فقط أرى الأمور كلها سواء.

- الأمور كلها سواء! حتى لو كنت تشعرين بذلك فهى ليست كذلك. فالصحة ليست كالمرض، وفقد الشعور ليس كالألم.

– على الأقل لو استطعنا أن نهرب من الاحتمالات الأسوأ.

– يذكرنى ذلك بما أسميه صوت "الباراسيمبثاوى".

–لم أفهم قصدك.

– إنه جزء من الأعصاب الطرفية يسيطر نشاطه فى أوقات السلم وأوقات الراحة والسكينة، يمكنك أن تسميها كما ترينها، إنها باختصار الحياة العادية، حيث ينظم أعمال الهضم وإخراج البول والبراز.. الوظائف التى تُبقي الإنسان على قيد الحياة. وبعمله فى ظروف الحياة المعتادة فإنه يضبط إيقاع القلب ليظل هادئاً.

ويمكننى أن أقول أن الإنسان الطبيعى هو إنسان "باراسيمبثاوى" وأن الحياة الطبيعية مصطبغة بأخلاق "الباراسيمبثاوى". إن الاسم نفسه يوحى لى بهذا النوع من الحياة. ولكن رغم تمسك الإنسان به إلا أنه مضطر إلى أن يواجه الخوف طوال حياته، كأن يضطر إلى مواجهة الموت فى القتال أو أمام عجلات سيارة أو أمام سلاح لص. وهنا يخفت صوت "الباراسيمبثاوى" ليصرخ "السيمبثاوى" فى كل ذرة فى جسد الإنسان. إن أخلاقه تختلف كثيراً وهى كريهة لأبعد مدى، إنها سلاح مؤلم لصاحبه وبغيض شأنه شأن كل الأسلحة؛ وبما أن تأثيره على الجسد حين تكون له الغلبة مضاد تماماً للباراسيمبثاوى فهو لا يجعل الإنسان مؤهلاً لغير الحرب، أو الهروب.

و بتصورى يمكننى القول: إن أخلاق "الباراسيمبثاوى" حتى فى أدنى صورها هى القاعدة الحقيقية للحضارة حتى ولو كان التاريخ والحاضر لهما رأى مخالف تماماً.

وأخيراً أستطيعُ أن أقول لكِ أن جسم الإنسان نفسه يبرهن على أن الأمور ليست سواء.

تأملت قوله طويلاً ولم تزد عن قولها

- ربما كان معك حق.

شيء ما منعها من الخوض فى هذا الحديث رغم اتفاقه مع أفكارها، شيء يشبه الماضى الذى لا نملكه، تاريخ وضيع لا تملك منه سوى اسم الأب.

صمتا وقتاً وهى تُحاول أن تتحدث ولكنهما ظلا صامتين.

35

بعدما تخلف يوسف وجميلة أياماً عن المائدة، كان الجميع فى ذلك اليوم فى أماكنهم المعتادة.

مؤخراً استطاعت جميلة أن تفهم صرامة سيدة البيت فيما يخص ميعاد الغداء. لقد كان منفذها إلى أعين الجالسين حولها لتتعرف فيها على الجديد، فيم يفكرون وعلام ينوون، خاصة الابن الذى أثارت علامات الحروق فى جسده فزع جميلة. فقد أقدم هذا الشاب على الانتحار مرتين، وفى كلتا المرتين استخدم نفس الأسلوب القاسى، وفى كلتا المرتين تم إنقاذ حياته عن طريق الصدفة.

ولم يعلم أحد على الإطلاق السبب الحقيقى وراء رغبته الملحة فى التخلص من حياته. ورغم عدم نجاحه فى مسعاه إلا أنه استطاع أن يوقف حياته عمليا عن السير.

ورغم أيضاً أنه لم يفعل شيئاً على الإطلاق يمكن وصفه بجيد أو سيء فقد كان غصة فى حلق الأم لم تتضاءل يوماً، وسبباً جديداً لزيادة مخاوف جميلة التى لا تنتهى، وهاجساً يحمل إحساس الرهبة المصحوبة بالغثيان.

كان الجميع يتناولون طعامهم فى صمت حتى وجهت الأم حديثها إلى جميلة ويوسف:

– اليوم سنبدأ فى شراء الأثاث، وبعد الانتهاء من كل شيء سنحدد ميعاد الزفاف مباشرة.

لم يبد أى تغير فى وجه يوسف بينما توقف الطعام فى حلق جميلة، ولم تفت علامات انزعاجها على أعين الأم الثاقبة، نظرت إلى أعين جميلة مباشرة.

– لن أسمح بأن تطول مدة الخطبة أكثر من شهر.

لم تتحدث "جميلة" مع أحد ولا مع نفسها فى الأمر. سيتم الزواج بالسرعة التى وافقت بها عليه، والأحداث المهمة عموماً لا تتم إلا بدافع من التهور حتى وإن كانت مبرراتها واهنة.

لقد عزمت على أنها لن تفكر بعد اليوم، وسواء كان ما يحدث هو نتيجة اختيارها أم لا فلن تكترث ؛لأن الأمور جميعها تملك نفس القدر من السخف.

كانت تفكر من قبل فى مزيد من الوقت ومزيد من الفهم، ولكنه لم يزدد إلا غموضاً.

وهى أصبحت تود أن يظل هكذا صندوقاً مغلقاً على ذاته ليدعها وشأنها مغلقة كما اعتادت.

هى لا تريد أحداثاً وأفعالاً، كل ما تريده الانتقال الهادىء من وضع إلى آخر. فتستطيع أن تحتفظ بهيمنتها النسبية كاملة على حياتها. أما أن تكون سعيدة أو تحمل آمالاً تتعلق بحياتهما المشتركة فهذا لم يحدث وهى لا تشكو ذلك.

بعدما هنأها دكتور" بهجت" لخطبتها وتمنى لها حياة سعيدة، نظر إلى خاتم الخطبة فى يدها ثم إلى وجهها وسألها:

-لماذا أنتِ غير سعيدة.

فأجابته:

-لأننى غير سعيدة.

لم تعرف غير هذه الإجابة، إنها غير سعيدة؛ لأنه لم يحدث شىء يستطيع أن يجعلها سعيدة ولكنها أيضاً لا تشعر بالتعاسة ولا الندم لم تتردد داخلها سوى جملة واحدة : " هذا ما حدث وليكن ما يكون".

36

لم تشعر "جميلة" بكل الترتيبات التى تجرى لإعداد المترل الجديد ولم تطلب أن تطّلع على شيء ، خاصة أنها تعلم تماماً مدى حرص سيدة البيت على إتمام كل شيء بنفسها دون تدخل أى شخص حتى لو كان من سيسكن هذا المكان.

كل ما فعلته "جميلة" أنها أعطتها المال الذى طلبته لاستكمال تأثيث البيت.

ما أثار دهشتها هو أن صاحب الجهد الأكبر فى كل ما يجرى هو الأخ ذو الحروق العديدة.

بعد أن حصلت "جميلة" على الدرجة العلمية وعدت دكتور "بهجت" بأن توقفها عن أعمال البحث الجديد لن يدوم وقتاً طويلاً.

خضع الجميع لإرادتها فى أن يكون حفل الزفاف عادياً وهادئاً وألا تحتل مكاناً ظاهراً بين المدعوين.

بعد أن انتهى الحفل كانت "جميلة" جالسة على طرف الفراش الوثير تُدلّك قدميها المتعبتين لطول الوقوف بالحذاء ذى الكعب المرتفع جداً.

عندما تبعها "يوسف" لم تشعر به، تأملها وقتاً ثم خفض بصره:

– "تصبحين على خير".

التفتت فوجدته قد مضى بسرعة وأغلق الباب. بعدها خمنت أنه استقر بحجرة الضيوف، بدّلت ملابسها وجذبت الغطاء واستطاعت أن تنام فى هدوء بعدما أقرت لنفسها بأنه بالفعل غير مزعج.

37

فى اليوم التالى لاحظت صمته الطويل وتغيُّر وجهه وفكرت فى نفسها أنه قد شعر بأهما ربما تسرعا كثيراً فى إتمام الزواج، وكان هذا مضمون السؤال الذى وجهته إليه بعد يوم من الصمت ولكنه أجاب بأن الأمر على العكس من ذلك تماماً. ورغم أها لم تفهم إلا أها لم توجه إليه حديثاً آخر. ولكنها لم تطق تلك الأجواء غير المريحة فصارت تشعر بالانقباض طوال الوقت، وفى النهاية أصبحت غير راغبة فى أن ترى وجهه أمامها حتى أها لم تشاركه الغداء. ولكنه ذهب إلى حيث كانت جالسة وطلب منها أن تتناول الطعام معه. بينما كانا يأكلان لم يتحدث ولم ينظر إليها ولكن يدها وهى تعيد كأساً سقط إلى وضعه لفتت انتباهه للغاية فظل ينظر إليها وقد بسطتها "جميلة" على الطاولة دون أن تشعر.

- يداكِ فى غاية الجمال، لم أرَ مثلهما.

امتدت أصابعه نحو يدها ولكن يده تراجعت قبل أن تلامسها، وارتدت إلى رأسه لتتخلل أصابعه خصلات شعره وتمشطها بعصبية، ثم عاود تناول الطعام ولكن بغير رغبة فيه.

لم يعد أمره يعنيها كثيراً ولكنها أحست بقلق حاولت التخلص منه بالاستغراق فى قراءة كتاب جيد.

فى الليلة التالية بينما كانت مستغرقة فى القراءة وهى ممدة، وجدته يدخل الحجرة فجأة مغلقاً الباب.

- يبدو أنكِ لا تنامين مبكراً.

38

لم تستطع "جميلة" وهى تملأ حقيبة السفر بملابسها ومتعلقاتها أن تتجاهل ألم الجراح والكدمات التى تملأ جسدها والتى احتملت آلامها طوال الليل. كان الغضب العارم يمدها بقوة إضافية حتى استطاعت أن تغلق الحقيبة سريعاً، وأن تندفع قدماها لمغادرة المنزل رغم أن جروح وجهها لم تلتئم بعد. فتحت باب الغرفة، كان جالساً على مسافة بعيدة عنها. حاول أن يتحدث رغم ألم الجرح المجاور لزاوية فمه والذى كان أحد الجروح التى سببتها أظافرها المدافعة. صوته كان مبحوحاً ومكتوماً.. ويداه مرتجفتان:

- أنا لم أقصد.. لم أستطع فقط التحكم فى نفسى.

تحدثت بصعوبة ودون أن تنظر إليه.

- أنت هكذا، تختلط لديك المتعة بالألم.. ويمكنك أن تتلقى علاجاً فيما بعد. أما بالنسبة لى فلابد أن ينتهى كل شىء بأسرع ما يمكن.

ورنّت صفعة الباب فى الصمت الذى خلّفته وراءها.

39

فتحت "جميلة" باب منزلها القديم حيث عاشت مع والدها بعد موت أبيها. تفحصته طويلاً وأخذت تعد السنوات التى غابت فيها عنه. صارت أنفاسها عميقة فى انفعال يشبه البكاء العنيف ولكن بلا دموع. كانت لديها طاقة هائلة تستطيع أن تفعل بها كل شيء يمكنه أن يخرجها من محيط ذاتها وذكرياتها. بدأت فى تنظيف البيت وإعادة ترتيبه على الطريقة التى كانت تقوم بها الأم.

من قبل كانت تخشى الحاجز الذى يمنعها من مجرد رؤية البيت، الموت اللعين والذكرى الحية والقلب الذى لم يعد يرغب فى تحمل لحظة واحدة من الألم. ولكن الحاجز تبدد وتفتت. إنها الحياة مستمرة طالما أننا مستمرون.

أضاء البيت، ولم تعرف لِمَ ظل مظلماً طوال تلك السنوات؟!. وكان لابد أن تعترف أخيراً بأن جبنَها هو الذى أظلم البيت، والخوف أظلم نفسها. حقاً لا شيء فى الحياة قادر على أن يخبر الإنسان تماماً ماذا يمكنه أن يكون، ولكن لابد أن يكون الإنسان أى شيء.. أى شيء قبل أن يلاقى المصير الحتمى فى أن يصير لا شيء.

ربما يتساوى الأمران فى نظرنا ولكن ما البديل؟

أوفت بوعدها لدكتور "بهجت" بالعودة السريعة، ولكنها كانت أسرع مما تخيل.

وعاد كل شيء كما كان تماماً، إلا أن "جميلة" استطاعت مؤخراً أن تقدر قيمة الوحدة.

ومع اقتراب أحد أهم الأعياد كانت "جميلة" على موعد مع دكتور بهجت. فقد اعتادا مؤخراً قضاء كافة الأعياد سوياً فى أحد الأماكن العامة لتنصهر وحدة كل منهما فى وحدة الآخر وسط جموع المحتفلين.

لقد وجد كل منهما ما يبحث عنه فى الآخر. وجدت الأب الذى يحبها أكثر من أى شيء، ووجد هو أميرته التى شغلت أحلامه على مدى سنوات العمر.

وكان يكتفى بشرف العثور على الحلم حتى لو كان ذلك فى وقت متأخر جداً.

* * *